

قطاع الثقافة

السيرة النبوية

لابن إسحاق

المجلد الثاني الجزء ٧

29

V2

أمر أموال هوازن وسباياها وعطايا المؤلفة قلوبهم منها وإنعام رسول الله ﷺ فيها

ثم خرج رسول الله ﷺ حين انصرف عن الطائف على دحنا (١) حتى نزل الجعرانة فيمن معه من الناس ، ومعه من هوازن سبى كثير ، وقد قال له رجل من أصحابه يوم ظعن عن ثقيف : يا رسول الله ادع عليهم ، فقال رسول الله ﷺ : اللهم اهد ثقيفًا وائت بهم .

ثم أتاه وفد هوازن بالجعرانة ، وكان مع رسول الله ﷺ من سبى هوازن ستة آلاف من الذرارى والنساء ، ومن الإبل والشاة ما لا يدرى ما عدته .

قال ابن إسحاق : فحدثنى عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده عبد الله بن عمرو ، أن وفد هوازن أتوا رسول الله ﷺ وقد أسلموا فقالوا : يا رسول الله ، إنا أصل وعشيرة ، وقد أصابنا من البلاء ما لم يخف عليك ، فامنن علينا ، منّ الله عليك . قال : وقام رجل من هوازن ثم أحد بنى سعد بن بكر ، يقال له زهير ، يكنى أبا صرد . فقال : يا رسول الله ، إنما فى الحظائر عماتك وخالاتك وحواضنك اللاتى كن يكفلنك ، ولو أنا ملحنا للحارث بن أبى شمر ، أو للنعمان ابن المنذر ، ثم نزل منا بمثل الذى نزلت به . رجونا عطفه وعائدته علينا ، وأنت خير المكفولين .

قال ابن إسحاق : فحدثنى عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده عبد الله ابن عمرو ، قال : فقال رسول الله ﷺ : أبناؤكم ونساؤكم أحب إليكم أم أموالكم ؟ فقالوا : يا رسول الله ، خيَّرتنا بين أموالنا وأحسابنا ، بل ترد إلينا نساءنا وأبناءنا ، فهو أحب إلينا ، فقال لهم : أما ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم ، وإذا ما أنا صليت الظهر بالناس ، فقوموا فقولوا : إنا نستشفع برسول الله إلى المسلمين ، وبالمسلمين إلى رسول الله فى أبنائنا ونسائنا فسأعطيكم عند ذلك ، وأسأل لكم ، فلما صلى رسول الله ﷺ بالناس الظهر قاموا فتكلموا بالذى أمرهم به ، فقال رسول الله ﷺ : أما ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم .

---

(١) دحنا : موضع بالطائف .

فقال المهاجرون : وما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ . وقالت الأنصار : وما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ ، فقال الأقرع بن حابس : أما أنا وبنو تميم فلا وقال عيينة بن حصن : أما أنا وبنو فزارة فلا ، وقال عباس بن مرداس أما أنا وبنو سُليم فلا . فقالت بنو سليم : بلى ، ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ .

قال : يقول عباس بن مرداس لبنى سليم : وهّنتمونى .

فقال رسول الله ﷺ : أما من تمسك منكم بحقه من هذا السبى فله بكل إنسان ست فرائض ، من أول سبى أصيبه . فردوا إلى الناس أبناءهم ونساءهم .

قال ابن إسحاق : وحدثنى أبو وجزة يزيد بن عبيد السعدى : أن رسول الله ﷺ أعطى على بن أبى طالب رضي الله عنه جارية ، يقال لها ريطة بنت هلال بن حيان بن عميرة بن هلال بن ناصرة بن قصية بن نصر بن سعد بن بكر ، وأعطى عثمان بن عفان جارية . يقال لها زينب بنت حيان بن عمر بن حيان ، وأعطى عمر بن الخطاب جارية ، فوهبها لعبد الله بن عمر ابنه .

قال ابن إسحاق : فحدثنى نافع مولى عبد الله بن عمر ، عن عبد الله ابن عمر ، قال : بعثت بها إلى أخوالى من بنى جمح ، ليصلحوا لى منها ، ويهيئوها ، حتى أطوف بالبيت ، ثم آتيهم وأنا أريد أن أصيبها إذا رجعت إليها . قال فخرجت من المسجد حين فرغت ، فإذا الناس يشتدون ، فقلت : ما شأنكم ؟ قالوا : رد علينا رسول الله ﷺ نساءنا وأبناءنا ، فقلت : تلكم صاحبتكم فى بنى جمح ، فاذهبوا إليها فخذوها . فذهبوا إليها ، فأخذوها .

قال ابن إسحاق : وأما عيينة بن حصن ، فأخذ عجوزًا من عجائز هوازن ، وقال حين أخذها : أرى عجوزا إنى لأحسب لها فى الحى نسبا ، وعسى أن يعظم فداؤها . فلما رد رسول الله ﷺ السبايا بست فرائض ، أبى أن يردها ، فقال له زهير أبو صرد : خذها عنك ، فوالله ما فوها ببارد ، ولا ثديها بناهد ، ولا بطنها بوالد ، ولا زوجها بواجد [١] ، ولا درها بماكد [٢] . فردها بست فرائض حين قال له زهير ما قال ، فزعموا أن عيينة لقى الأقرع بن حابس فشكا إليه ذلك ، فقال : إنك والله ما أخذتها بيضاء غريرة ، ولا نصفًا وثيرة [٣] .

---

(١) الواجد : الحزين . (٢) الماكد : الغزير .

(٣) غريرة : متوسطة السن ، نصفًا : متوسطة السن أيضًا ، وثيرة ، سمينة .

• إسلام مالك بن عوف :

وقال رسول الله ﷺ لوفد هوازن ، وسألهم عن مالك بن عوف ما فعل ؟ فقالوا : هو بالطائف مع ثقيف ، فقال رسول الله ﷺ : أخبروا مالكًا أنه إن أتانى مسلمًا رددتُ عليه أهله وماله ، وأعطيته مائة من الإبل ، فأتى مالك بذلك ، فخرج إليه من الطائف . وقد كان مالك خاف ثقيفا على نفسه أن يعلموا أن رسول الله ﷺ قال له ما قال : فيحبسوه ، فأمر براحلته فهيئت له ، وأمر بفرس له ، فأتى به إلى الطائف ، فخرج ليلاً ، فجلس على فرسه ، فركضه حتى أتى راحلته حيث أمر بها أن تحبس ، فركبها ، فلحق برسول الله ﷺ ، فأدركه بالجعرانة أو بمكة ، فرد عليه أهله وماله ، وأعطاه مائة من الإبل [١] ، وأسلم فحسن إسلامه ، فقال مالك بن عوف حين أسلم :

ما إنْ رأيتُ ولا سمــــعتُ بِمثلِهِ ... فى الناسِ كُلهم بِمــثلِ مُحَمَّدِ
أَوفَى وأعطى للجزيل إذا اجتدى ... ومتى تَشأ يُخبركَ عَمـا فى غَدِ
وإذا الكَتيبة عَرَّدتْ أنيــــــابهَا ... بالسمهرى وضَرب كــل مُهَنَّدِ
فكأنه لَيثٌ على أشــــــــبالِه ... وَسط الهباءة خَادِرٍ فى مَرصَدِ

فاستعمله رسول الله ﷺ على من أسلم من قومه ، وتلك القبائل : ثمالة وسلمة [٢] وفهم فكان يقاتل بهم ثقيفًا ،لا يخرج لهم سرح إلا أغار عليه ، حتى ضيق عليهم فقال أبو مِحجن [٣] بن حبيب بن عمرو بن عمير الثقفى :

هَابتْ الأَعْدَاء جَانبَنا ... ثُمَّ تَغزُونا بَنُو سَلْـمَهْ
وأتانا مَالكٌ بِهـــــم ... نَاقِضًا للعَهْد والحُرمَـهْ
أتونا فى مَنَازلنــــا ... وَلَقد كُنَّا أولــى نِقمَهْ

---

(١) وهكذا دائما كانت أخلاق رسول الله ﷺ الوفاء بالوعد .

(٢) قال السهيلى فى الروض الأنف : هكذا تقيد فى النسخة – بكسر اللام – والمعروف فى قبائل قيس سلمة بالفتح .

(٣) هو مالك بن حبيب ، وقيل : عبد الله بن حبيب بن عمرو بن عمـــير بن عوف ابن عقدة بن غيرة بن عوف بن قيس الثقفى .

• **تقسيم الفيء :**

قال ابن إسحاق : ولما فرغ رسول الله ﷺ من رد سبايا حُنين إلى أهلها ركب ، واتبعه الناس يقولون : يا رسول الله ، اقسم علينا فيأنا من الإبل والغنم ، حتى ألجئوه إلى شجرة ، فاختطفت عنه رداءه ، فقال : أدوا عليَّ ردائي أيها الناس ، فوالله أن لو كان لكم بعدد شجر تهامة نعمًا لقسمته عليكم ثم ما ألفيتموني بخيلا ولا جبانا ولا كذّابا ، ثم قام إلى جنب بعير ، فأخذ وبرة من سنامه ، فجعلها بين أصبعيه ، ثم رفعها ، ثم قال : أيها الناس ، والله مالي من فيئكم ولا هذه الوبرة إلا الخمس ، والخمس مردود عليكم ، فأدوا الخياط والمخيط [١] ، فإن الغلول [٢] يكون على أهله عارًا ونارًا وشنارًا [٣] يوم القيامة قال : فجاء رجل من الأنصار بكبة من خيوط شعر ، فقال : يا رسول الله ، أخذت هذه الكبة أعمل بها برذعة بعير لي دبر . فقال : أما نصيبي منها فلك قال : أما إذا بلغت هذا فلا حاجة لي بها ، ثم طرحها من يده [٤] .

قال ابن إسحاق : وأعطى رسول الله ﷺ المؤلفة قلوبهم ، وكانوا أشرافاً من أشراف الناس ، يتألفهم ويتألف بهم قومهم ، فأعطى أبا سفيان بن حرب مائة بعير ، وأعطى ابنه معاوية مائة بعير ، وأعطى حكيم بن حزام مائة بعير ، وأعطى الحارث بن الحارث بن كلدة ، أخا بني عبد الدار مائة بعير .

قال ابن إسحاق : وأعطى الحارث بن هشام مائة بعير ، وأعطى سهيل بن عمرو مائة بعير ، وأعطى حويطب بن عبد العزى بن أبي قيس مائة بعير ، وأعطى العلاء بن جارية الثقفي ، حليف بني زهرة مائة بعير ، وأعطى عيينة بن حصن بن

---

(١) الخياط : الخيط : والمخيط : آلة الخياطة (الإبرة) .

(٢) الغلول : الخيانة . (٣) الشنار : الأمر القبيح الشنيع .

(٤) قال ابن هشام : وذكر زيد بن أسلم ، عن أبيه : أن عقيل بن أبي طالب دخل يوم حُنين على امرأته فاطمة بنت شيبة بن ربيعة ، وسيفه متلطخ دما . فقالت : إني قد عرفت أنك قد قاتلت ، فماذا أصبت من غنائم المشركين ؟ فقال : دونك هذه الإبرة تخيطين بها ثيابك ، فدفعها إليها ، فسمع منادي رسول الله ﷺ يقول : من أخذ شيئًا فليرده ، حتى الخياط والمخيط . فرجع عقيل ، فقال : ما أرى إبرتك إلا قد ذهبت ، فأخذها ، فألقاها في الغنائم .

حذيفة بن بدر مائة بعير ، وأعطى الأقرع بن حابس التميمى مائة بعير · وأعطى مالك ابن عوف النصرى مائة بعير ، وأعطى صفوان بن أمية مائة بعير ، فهؤلاء أصحاب المئين ·

وأعطى دون المائة رجالاً من قريش ، منهم مَخْرمة بن نَوفل الزُّهرى ، وعُمير ابن وهْب الجُمحى ، وهشام بن عمرو أخو بنى عَامر بن لُؤى ، لا أحفظ ما أعطاهم وقد عرفت أنها دون المائة ، وأعطى سعيد بن يربوع بن عنكشة بن عامر بن مخزوم خمسين من الإبل ، وأعطى السهمى خمسين من الإبل ·

● **شعر ابن مرْداس :**

قال ابن إسحاق : وأعطى عباس بن مرداس أباعر فسخطها ،فعاتب فيها رسول الله ﷺ ، فقال عباس بن مرداس يعاتب رسول الله ﷺ :

كَانتْ نِهــــابًا تلافَيتهَا بِكَرِّى على المــهر فى الأجرعِ
وإيقاظِى القــومَ أن يَرقدوا إذا هَجــع الناس لم أهجَعِ
فأصبح نَهبــى ونَهَب العُبيــ ــد بــين عيينَة والأقرعِ (١)
وقد كنتُ فى الحربِ ذَا تدرإ فلم أُعــط شيئًا ولم أَمنعِ
إلا أفائــلَ أُعطيتها عَديد قوائمهــا الأربَعِ (٢)
وما كان حِصــنٌ ولا حابِسٌ يفوقان شيخــى فى المجمع (٣)
وما كنتُ دون امــرئ منهما ومن تَضــع اليومَ لا يُرفعِ

قال ابن إسحاق : فقال رسول الله ﷺ : اذهبوا به ، فاقطعوا عنى لسانه ، فأعطوه حتى رضى ، فكان ذلك قطع لسانه الذى أمر به رسول الله ﷺ (٤) ·

---

(١) العبيد : اسم فرس عباس بن مرداس ·
(٢) الأفائل : أصاغر الإبل مفردها أفيل · (٣) شيخى : أى أبى وجدى ·
(٤) قال ابن هشام : وحدثنى بعض أهل العــلم أن عباس بن مرداس أتى رســول الله ﷺ ، فقال له الرسول ﷺ : أنت القائل ·
« فأصبح نهبى ونهب العبيد بين الأقرع وعيينة » فقال أبو بكر للرسول ﷺ : أشهد أنك كما قال الله : ﴿ وما علمناه الشعر وما ينبغى له ﴾ وإنما قال أبو بكر ذلك ؛ لأن الرسول ﷺ لم ينطق البيت موزونًا لأنه لا يقول الشعر وإن كان يستمعه ويستجيده ·

• لماذا لم يُعط النبى ﷺ جُعَيْلاً :

قال ابن إسحاق : وحدثنى محمد بن إبراهيم بن الحارث التيمى : أن قائلا قال لرسول الله ﷺ من أصحابه : يا رسول الله ، أعطيت عيينة بن حصن والأقرع بن حابس مائة ، وتركت جُعيل بن سراقة الضمرى ؟! فقال رسول الله ﷺ : أما والذى نفس محمد بيده لجعيل بن سراقة خير من طلاع الأرض ، كلهم مثل عيينة بن حصن والأقرع بن حابس ، ولكنى تألفتهما ، ووكلت جُعيل بن سراقة إلى إسلامه .

قال ابن إسحاق : وحدثنى أبو عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر ، عن مقسم أبى القاسم مولى عبد الله بن الحارث بن نوفل ، قال : خرجت أنا وتليد بن كلاب الليثى ، حتى أتينا عبد الله بن عمرو بن العاص ، وهو يطوف بالبيت ، معلقا نعله بيده ، فقلنا له : هل حضرت رسول الله ﷺ حين كلمه التميمى يوم حنين ؟ قال : نعم ، جاء رجل من بنى تميم ، يقال له ذو الخويصرة ، فوقف عليه وهو يعطى الناس ، فقال : يا محمد ، قد رأيتُ ما صنعت فى هذا اليوم : فقال رسول الله ﷺ : أجل . فكيف رأيت ؟ فقال : لم أرك عدلت ، قال فغضب النبى ﷺ ، ثم قال : ويحك ! إذا لم يكن العدل عندى فعند من يكون ؟! فقال عمر ابن الخطاب : يا رسول الله ، ألا أقتله ؟ فقال : لا ، دعه فإنه سيكون له شيعة يتعمقون فى الدين حتى يخرجوا منه كما يخرج السهم من الرمية ينظر فى النصل[1] ، فلا يوجد شىء ، ثم فى القدح[2] ، فلا يوجد شىء ، ثم فى الفوق[3] ، فلا يوجد شىء ، سبق الفرث ، والدم[4] .

---

(١) النصل : حديد السهم .

(٢) القدح : السهم .

(٣) الفوق : طرف السهم .

(٤) وهذا الحديث النبوى الشريف من أعلام النبوة وهى التى أخبر بها النبى ﷺ قبل حدوثها وأنها ستحدث بعده ، وقد حدثت بالفعل كما أخبر الصادق المصدوق ﷺ ، وهذا الحديث يتحدث عن ظهور أناس – هم الخوارج ومن وافقهم – يتعمقون فى الدين – لكن ليس تعمقا برفق – ولذلك سهل أن يخرجوا من الدين بسرعة كما يخرج السهم من الرمية فلا يأخذ معه شيئًا ، وصدق الرسول ﷺ حين حذر من مثل هذا قائلا : « إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق » نسأل الله – الهداية والرشاد والتوفيق والسداد لجميع المسلمين .

قال ابن إسحاق : وحدثنى محمد بن على بن الحسين أبو جعفر بمثل حديث أبى عبيدة ، وسماه ذا الخويصرة .

قال ابن إسحاق : وحدثنى عبد الله بن أبى نَجيح ، عن أبيه بمثل ذلك .

• مقالة رسول الله ﷺ فى الأنصار :

قال ابن إسحاق : وحدثنى عاصم بن عمر بن قتادة ، عن محمود بن لبيد ، عن أبى سعيد الخدرى ، قال : لما أعطى رسول الله ﷺ ما أعطى من تلك العطايا فى قريش وفى قبائل العرب[1] ، ولم يكن فى الأنصار منها شىء ، وجد هذا الحى من الأنصار فى أنفسهم ، حتى كثرت منهم القالة حتى قال قائلهم لقد لقى والله رسول الله ﷺ قومه ، فدخل عليه سعد بن عبادة ، فقال : يا رسول الله ، إن هذا الحى من الأنصار قد وجدوا عليك فى أنفسهم . لما صنعت فى هذا الفىء . الذى أصبت ، قسمت فى قومك . وأعطيت عطايا عظاماً فى قبائل العرب . ولم يك فى هذا الحى من الأنصار منها شىء . قال : فأين أنت من ذلك يا سعد ؟ قال : يا رسول الله ، ما أنا إلا من قومى قال : فاجمع لى قومك فى هذه الحظيرة قال : فخرج سعد ، فجمع الأنصار فى تلك الحظيرة . فجاء رجال من المهاجرين فتركهم ، فدخلوا ، وجاء آخرون فردهم ، فلما اجتمعوا له أتاه سعد ، فقال : قد اجتمع لك هذا الحى من الأنصار ، فأتاهم رسول الله ﷺ فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال : يا معشر الأنصار : مقالة بلغتنى عنكم ، وجدة [2] وجدتموها على فى أنفسكم ؟ ألم آتكم ضلالا فهداكم الله ، وعالة فأغناكم الله ، وأعداء فألف الله بين قلوبكم ؟ قالوا : بلى ، الله ورسوله أمن وأفضل . ثم قال : ألا تجيبوننى يا معشر الأنصار ؟ قالوا : بماذا نجيبك يا رسول الله ؟ لله ولرسوله المنُّ والفضل . قال ﷺ : أما والله لو شئتم لقلتم ، فلصدقتم ولصُدِّقتم : أتيتنا مكذبا فصدَّقناك ، ومخذولا فنصرناك ، وطريدا فآويناك ، وعائلا فآسيناك ، أوجدتم يا معشر الأنصار

---

(١) يقصد من أعطاهم الرسول ﷺ وهم : بنى عدى بن كعب ، بنى جمح بن عمرو، ومن بنى سهم ومن بنى عامر بن لؤى ومن بنى بكر بن عبد مناة بن كنانة،من بنى قيس ، ومن بنى عامر بن صعصعة ، ومن بنى عامر بن ربيعة ومن بنى نصر بن معاوية ، ومن بنى سليم بن منصور ، ومن بنى غطفان ، ومن بنى تميم .

(٢) الجدة : مصدر وجد ، أى وجدتم فى أنفسكم شيئا .

فى أنفسكم ، فى لعاعة [١] من الدنيا تألفت بها قوما ليسلموا ، ووكلتكم إلى إسلامكم ، ألا ترضون يا معشر الأنصار ، أن يذهب الناس بالشاة والبعير ، وترجعوا برسول الله إلى رحالكم ؟ فوالذى نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرءًا من الأنصار ، ولو سلك الناس شعبًا وسلكت الأنصار شعبًا ، لسلكت شِعب الأنصار . اللهم ارحم الأنصار ، وأبناء الأنصار ، وأبناء أبناء الأَنصار [٢] .

قال : فبكى القوم حتى أخضلوا [٣] لحاهم ، وقالوا : رضينا برسول الله قَسمًا وحظًّا ، ثم انصرف رسول الله ﷺ ، وتفرقوا .

* * *

عُمْرَةُ الرسول من الجعْرَانة

واستخلافه عتاب بن أسيد على مكة ، وحج عتاب بالمسلمين سنة ثمان [٤] .

قال ابن إسحاق : ثم خرج رسول الله ﷺ من الجعرانة معتمرًا ، وأمر ببقايا الفىء فحبس بمجنة ، بناحية من الظهران ، فلما فرغ رسول الله ﷺ من عمرته انصرف راجعًا إلى المدينة ، واستخلف عتاب بن أُسيد على مكة ، وخلَّف معه معاذ ابن جبل يفقِّه الناس فى الدين ، ويعلمهم القرآن ، واتبع رسول الله ﷺ ببقايا الفىء .

قال ابن إسحاق : وكانت عمرة رسول الله ﷺ فى ذى القعدة ، فقدم رسول الله ﷺ المدينة فى بقية ذى القعدة أو ذى الحجة [٥] .

---

(١) اللعاعة : الخصب ، أو الشجرة الخضراء ، شبه بها نعيم الدنيا .

(٢) تكفهم هذه الدعوة فهى خير من مــلء الأرض ذهبًا ، أن دعا لهم بالرجمة ، والمغفرة ، ولأبنائهم ولذريتهم ، وهذه هى السعادة الحقيقية .

(٣) أخضلوا : أى بلوا .

(٤) قال ابن هشام : وبلغنى عن زيد بن أسلم أنه قال : لما استعمل النبى ﷺ عتاب ابن أسيد على مكة رزقه كل يوم درهما ، فقام فخطب الناس ، فقال : أيها الناس ، أجاع الله كبد من جاع على درهم ، فقد رزقنى رسول الله ﷺ درهما كل يوم فليست بى حاجة إلى أحد .

(٥) قال ابن هشام : وقدم رسول الله ﷺ المدينة لست ليالٍ بقين من ذى القعدة فيما زعم أبو عمر المدنى .

قال ابن إسحاق : وحج الناس تلك السنة على ما كانت العرب تحج عليه ، وحج بالمسلمين تلك السنة عتاب بن أسيد ، وهى سنة ثمان ، وأقام أهل الطائف على شركهم وامتناعهم فى طائفهم ما بين ذى القعدة إذا انصرف رسول الله ﷺ إلى شهر رمضان من سنة تسع .

* * *

أَمْرُ كَعْبِ بْنِ زُهَيْرٍ بعد الانْصراف عن الطائف

ولما قدم رسول الله ﷺ من منصرفه عن الطائف كتب بُجير بن زُهير بن أبى سُلمى إلى أخيه كعب بن زُهير يخبره أن رسول الله ﷺ قتل رجالا بمكة ممن كان يهجوه ويؤذيه ، وأن من بقى من شعراء قريش ، ابن الزبعرى ، وهبيرة بن أبى وهب قد هربوا فى كل وجه ، فإن كانت لك فى نفسك حاجة ، فطر (١) إلى رسول الله ﷺ ، فإنه لا يقتل أحدًا جاءه تائبًا ، وإن أنت لم تفعل فانج إلى نجاتك من الأرض ، وكان كعب بن زهير قد قال :

أَلاَ أبلغَا عنِّى بُجَيرا رِسَالةً ... فَهَلْ لكَ فيما قُلتَ ويحكَ هل لكَا ؟

فبين لنا إن كُنتَ لست بفاعلٍ ... على أى شىءٍ غير ذلك دَلكَا

عَلى خُلُقٍ لم أُلْفِ يومًا أبًا لَهُ ... عَليه وما تُلْفِى عليه أبًا لكَا

فَإنْ أنتَ لم تفعل فلستُ بآسفٍ ... ولا قائلٍ أما عثرتَ لعالكا (٢)

سَقاك بها المأمونُ كاسًا رَوِيَّةً ... فأنهلك المأمون منها وعلكَا (٣)

قال : وبعث بها إلى بُجير ، فلما أتت بُجيرًا كَره أن يكتمها رسول الله ﷺ فأنشده إياها ، فقال رسول الله ﷺ لما سمع : « سقاك بها المأمون » صدق وإنه لكذوب ، أنا المأمون . ولما سمع : « على خلق لم تلف أمًّا ولا أبا عليه » قال : أجل لم يلف عليه أباه ولا أمه .

---

(١) فعل أمر بمعنى : طر من الطيران ، أى ائت الرسول بسرعة .

(٢) لعالك كلمة تقال للعاثر دعاء له بالإقالة . أنشد أبو عبيد :

فلا لعا لبنى فلان إذا عثروا .

(٣) قال الزرقانى ويروى : المحمود فى غير رواية ابن إسحاق ، أراد بالمحمود محمدًا ﷺ وكذلك المأمون والأمين كانت قريش تسمى بها النبى ﷺ قبل النبوة . النهل : الشرب الأول . والعلل الشرب الثانى .

● **شعر بُجير لكعب :**

مَنْ مُبْلغٌ كعبًا فهـــل لكَ فى التى ... تَلـــومُ عليها باطلاً وهـــى أحزَمُ

إلى الله لا العُزَّى ولا اللات وحدهُ ... فتنجو إذا كان النجاء وتَســـــلمُ

لَدى يوم لا ينجو وليـــــس بمفلت ... منَ الناسِ إلا طاهر القلب مُسلمُ

فَدِينُ زهَيرٍ وهو لا شـــــىء دِينهُ ... وَدينُ أبى سُلْمـــــى علىَّ مُحَرَّمُ

قال ابن إسحاق : وإنما يقول كعب « المأمون » ، لقول قريش الذى كانت تقوله لرسول الله ﷺ .

كعب بن زُهير وقصيدته بانت سعاد : قال ابن إسحاق : « فلما بلغ كعبا الكتاب ضاقت به الأرض ، وأشفق على نفسه ، وأرجف به من كان في حاضره من عدوه ، فقالوا : هو مقتول . فلما لم يجد من شيء بُدًّا ، قال قصيدته التى يمدح فيها رسول الله ﷺ ، وذكر فيها خوفه وإرجاف الوشاة به من عدوه ، ثم خرج حتى قدم المدينة « فنزل على رجل كانت بينه وبينه معرفة ، من جهينة ، كما ذكر لى ، فغدا به إلى رسول الله ﷺ حين صلى الصبح ، فصلى مع رسول الله ﷺ ، ثم أشار له إلى رسول الله ﷺ ، فقال : هذا رسول الله فقم إليه فأستأمنه فذكر لى أنه قام إلى رسول الله ﷺ ، حتى جلس إليه ، فوضع يده فى يده ، وكان رسول الله ﷺ لا يعرفه ، فقال : يا رسول الله ، إن كعب بن زهير قد جاء ليستأمن منك تائباً مسلمًا ، فهل أنت قابل منه إن أنا جئتك به ؟ قال رسول الله ﷺ : نعم ، قال أنا يا رسول الله كعب بن زهير .

قال ابن إسحاق : فحدثنى عاصم بن عمر بن قتادة : أنه وثب عليه رجل من الأنصار ، فقال يا رسول الله ، دعنى وعدو الله أضرب عنقه ، فقال رسول الله ﷺ : دعه عنك فإنه قد جاء تائبا ، نازعاً عما كان عليه . قال فغضب كعب على هذا الحى من الأنصار ، لما صنع به صاحبهم ، وذلك أنه لم يتكلم فيه رجل من المهاجرين إلا بخير ، فقال فى قصيدته التى قال حين قدم على رسول الله ﷺ :

بَانتْ سُعادُ فَقلبِى اليـومَ مَتْبولُ ... مُتَيَّمٌ إثرها لم يُفْدَ مكـــــبولُ (١)

---

(١) بانت : فارقت فراقًا بعيدًا . متيم : ذليل مستعبد . متبول : أسقمه الحب وأضـــناه . لم يفد : لم يخلص من الأسر . مكبول : لا يجد فكاكا من القيد .

وما سُعادُ غداةَ البَينِ إذ رَحلوا ... إلا أغنُّ غضيضُ الطرفِ مكحولُ (١)
هيفاء مُقبلةٌ عَجزاء مُدبرةٌ ... لا يُشتكى قِصَرٌ منها ولا طُولُ (٢)
تَجلو عَوارض ذِى ظلم إذا ابتَسَمتْ ... كأنه مَنْهل بالرَّاح مَعْلولُ (٣)
شجت بِذى شيم من مَاء محنية ... صَافٍ بأبطح أضحَى وهَو مَشمولُ (٤)
تَنفى الرياحَ القَذى عنه وأفرطَهُ ... مِنْ صَوبِ غَادية بيض يَعاليلُ (٥)
فَيالهَا خُلَّة لو أنها صَدَقَتْ ... بوَعْدِها أو لو ان النصح مقبولُ (٦)
لكنها خُلَّةٌ قد سيطَ من دمِها ... فَجع ووَلع وإخلاف وتَبديلُ (٧)
فَما تَدومُ على حَال تكونُ بِها ... كَما تَلون فى أثوابها الغولُ (٨)
ومَا تَمسك بالعَهْد الذى زَعمتْ ... إلا كَما يمسِك الماء الغرابيلُ (٩)

---

(١) غداة البين : صبيحة الفراق : اغن : أى ظبى اغن في صوته حسن ، غضيض الطرف : فاتره . مكحول : أسود الجفون .

(٢) هيفاء : ضامرة البطن والخصر . العجزاء : ضخمة العجز ، لا يشتكى : لا يعاب .

(٣) تجلو : تصقل وتظهر وتكشف ، العوارض : الأسنان التى تظهر عند الضحك . الظلم : ماء الأسنان وبريقها ورقتها وهو أيضًا الثلج شبهت به الأسنان ، النهل : المسقى وهو الشرب الأول ، الراح : الخمر ، معلول : اسم مفعول من عله ، والعلل : الشرب الثانى .

(٤) شجت : مزجت ، ذى شيم : ماء شديد البرد ، محنية : منعطف الوادى ، ابطح . مسيل واسع فيه حصى دقيق . اضحى : أخذ فى وقت الضحى ، مشمول : ضربته ريح الشمال حتى برد .

(٥) تنفى : تبعد ، القذى : كل غريب يقع فى الماء من تبن ونحوه ، أفرطه : سبق إليه ، صوب : مطر سحابة ، غادية : مبكرة .

(٦) الخلة : الصديقة الخليلة .

(٧) سيط : خلط ، فجع : إصابة ، ولع : كذب ، إخلاف : خلف الوعد ، والمعنى : هذه الصفات خلطت بدمها .

(٨) الغول : ساحرة الجن تظهر فى الفلاة بألوان شتى ، تضلل من يتبعها .

(٩) ما تمسك : أى لا تتمسك .

فَلا يَغُرنَّكَ ما مَنَّتْ ومَا وَعَدَتْ إنَّ الأَمانِى والأحـــلامِ تَضْلِيلُ (١)
كَانَتْ مَواعِيدُ عرقُوب لهَا مثلاً وما مَواعيـــــدها إلا الأباطيل (٢)
أَرجـــو وآملُ أن تَدنُو مودتها وَما إِخَالُ لَدينا منك تنَويلُ (٣)
أمســـتْ سُعاد بأرضٍ لا يبلِّغُها إلا العِتـــاق الجِيباتُ المراسِيلُ (٤)
ولَن يُبَلِّغهـــــــــا إلا عذافرةٌ لَها على الأين إرقـــال وتَبغيلُ (٥)
مِنْ كُل نضاخة الذفرى إذا عَرِقتْ عُرْضتها طامِسُ الأعـــلامِ مَجهولُ (٦)
تَرمى الغيوبَ بعـــينى مفرد لهق إذَا توقدت الحـــزان والميلُ (٧)
ضَخمٌ مُقـــــلدها فعم مقيدها فى خلقها عن بنات الفحل تفْضيلُ (٨)

---

(١) فلا يغرنك : لا يخدعنك ، ما منــت : ما منتك به من الوصل ، الأمانى : الآمال ، تضليل : سبب فى ضلال الإنسان .

(٢) عرقوب : رجل اشتهر بخلف الوعد فضرب به المثل ، الأباطيل : جمع باطل ، وهو جمع على غير القياس .

(٣) تدنو : تظهر ، إخال : بكسر الهمزة لغة تميم بمعنى أظن . تنويل : الوصل والعطاء .

(٤) العتاق : جمع عتيق : الكريم . النجيبات: جمع نجيبة: الخفيفة السريعة المراسيل : جمع مرسال ، السريعة أيضًا .

(٥) العذافرة : الناقة القوية العظيمة . الأين : التعب . إرقال وتبغيل : ضربان من العدو السريع .

(٦) نضاخة : كثيرة رشح العرق . الذفرى : نقرة توجد خلف أذن الناقة . عرضتها : همّها . طامس : دارس . الأعلام : العلامات التى تكون فى الطريق ليهتدى بها .

يصف ناقته بالسرعة والنشاط حتى تعرق وهى متعودة على الأسفار تعرف الطرق بلا علامات .

(٧) الغيوب : آثار الطريق التى غابت معالمها عن العيون . مفرد : ثور وحشى تفرد فى الصحراء . لهق : أبيض . الحزان : الأمكنة الغليظة الصلبة فيها حصباء كثيرة . الميل : الكثبان الضخمة من الرمال .

(٨) مقلد : موضع القلادة من العنق . فعم : ممتلىء مقيد : موضع القـــيد ، أى قوائمها . وبنات الفحل : الإناث من الإبل المنسوبة إلى أبيها .

غَلباءَ وَجنـــاء عَلكوم مُذكَرة ... في دَفها ســعة قدامهَا ميلُ (١)

وجلدها من أطـــوم ما يؤيسه ... طِلْح بضاحية المتنين مَهزولُ (٢)

حَرفٌ ، أخوها أبوها من مهجنة ... وعَمها خالهـــا قوداء شَمليلُ (٣)

يَمشى القِرادُ عـــليهَا ثم يُزلقهُ ... مَنها لبان وأقـــرابُ زَهاليلُ (٤)

عِيرانة قذفتْ بالنحض عن عِرض ... مرفقها عن بَنات الزور مفتولُ (٥)

كَأنما فَاتَ عينـــيهَا ومذبحها ... من خِطْمِها ومن اللحيين بَرطيلُ (٦)

تَمر مثل عَسيبِ النخل ذَا خصل ... فَى غارز لم تخوَّنه الأَحاليلُ (٧)

قرناء فـــى حُرتيها للبصير بها ... عِتق مُبين وفى الخدين تَسهيلُ (٨)

تخدى على يسرات وهى لاحقةٌ ... ذوابل مسهن الأرض تَحليلُ (٩)

---

(١) غلباء : غليظة العنق · وجناء : عظيمة الوجنتين : علكوم : شديدة · مذكرة : تشبه الذكر فى عظم الخلقة ، الدف : الجنب · قدامها ميل : كناية إما عن سعة الخطو أو طول العنق ·

(٢) الأطوم : السلحفاة البحرية أو الزرافة غليظة الجلد · يؤيسه : يؤثر فيه · طلح : حشرة صغيرة تلزق بالجلد وهو ما يعرف بالقراد · الضاحية : الناحية الظاهرة للشمـس · المتنين : ما اكتنف صلبها عن يمين وشمال · ومهزول : صفة لطلح · أى قراد مهزول ·
والمعنى : أن جلد هذه الناقة غاية فى الملاسة فلا يؤثر فيه القراد ولذلك هو مهزول ·

(٣) حرف : أى هى حرف ، أبوها أخوها ، وعمها خالها : مداخلة النسب كريمته لم يدخل نسبها غريب ·

(٤) يزلقه : يسقطه ، لبان : صدر ، أقراب : خواصر · رهاليل : جمع رهلول ، والمعنى : أن هذه الناقة لنعومتها لا يثبت القراد على جسدها ·

(٥) عيرانة : أى ناقة تشبه الوحش فى قوته وسرعته ونشاطه ·

(٦) فات : تقدم ، مذبحها : مكان الذبح من الرقبة ، الخطم : الأنف وما حوله ·

(٧) عسيب النخل : جريده ، ذا خصل : ذيل له لفائف من الشعر ·

(٨) القرناء : محدودبة الأنف ، الحرتان : الأذنان ، عتق : كرم ·

(٩) تخدى : تسرع ، يسرات : أى قوائم يسرات : واليسرات الخفاف، لاحقة : سابقة ، الذوابل : الرماح الصلبة ، تحليل : قليل والمعنى : أن هذه الناقة سريعة لا تمس الأرض إلا مسا سريعًا لشدة عدوها ·

سُمر العجايات يَتركن الحصى زيمًا ... لم يقهِن رءوس الأكم تنعيلُ (١)
كأن أوب ذِراعيهـا وقَد عَرقتْ ... وقد تَلفعَ بالقـور العساقيلُ (٢)
يَومًا يظَل به الحـرباءُ مصطخدًا ... كأن ضاحيةٌ بالشـمسِ مَملولُ (٣)
وقَالَ للقوم حاديهم – وقد جعلتْ ... ورُق الجنادبِ يركُضن الحصَا قيلوا (٤)
شد النهار ذراعًا عيطـلٍ نصف ... قَامتْ فجـاوبها نُكد مَثاكيلُ (٥)
نَوَّاحةٌ رخـوة الضبعينِ ليس لهَا ... لما نَعى بكْرها الـناعون مَعقولُ (٦)
تَفرِى اللبـان بِكَفَّيها ومَدْرعُها ... مشقق عَنْ تَراقيهـا رَعابيلُ (٧)
تسعى الغُوَاة جَنابيهَا وقولهـم ... إنك يابن أبـى سُلْمَى لمقتولُ (٨)

---

(١) العجايات : الأعصاب المتصلة بالحافر · زيما : متفرقة · الأكم : الأرض المرتفعة · التنعيل : هو شد النعل على ظفر الدابة ليقيها الحجارة ·

(٢) الأوب : سرعة تقلب ورجوع ذراعيها · تلفع : التحف · القور : جمع قارة : الجبل الصغير · العساقيل : السراب ·

(٣) الحرباء : نوع من الدواب الصغيرة · مصطخدا · محترقا بحرارة الشمس · ضاحية : ما برز للشمس منه ، مملول : محروق ·

(٤) الحادى : سائق الإبل · ورق : جمع أورق أو ورقاء · وهو الأخضر الذى يضرب إلى السواد · الجنادب : جمع جندب : نوع من الجراد · يركضن : يدفعن : قيلوا : خذوا راحتكم وقت القيلولة ·

(٥) شد النهار : وسطه · عيطل : طويلة : نصف : متوسطة السن وهو غاية قوتها · نكد : من لا يعيش لهن ولد · مثاكيل : جمع مثكال : كثيرة فقد الأولاد ·

والمعنى : يشبه سرعة حركة يدى هذه الناقة بيدى امرأة قوية تلطم خديها فيجاوبها نسوة ثكالى فيشتد لطمها ·

(٦) نواحة : كثيرة النوح · صيغة مبالغة من نائحة · رخوة : مسترخية · الضبعين · العضدين · بكر : الولد الأول · الناعون · المخبرون بالموت : معقول : عقل ·

والمعنى : شبه هذه الناقة بتلك المرأة فى تلك الأحوال فالناقة فى هذه الحالة ليس لها عقل تدرك به التعب والإعياء ·

(٧) تفرى : تقطع · اللبان : الصدر · المدرع : القميص · التراقى : جمع ترقوة : عظام الصدر · رعابيل : قطع ، أى أن هذه المرأة لذهاب عقلها تقطع قميصها بأناملها ·

(٨) الغواة : المفسدون ، جنابيها : حواليها ، مقتول : متوعد بالقتل ·

وقال كـــل صديق كنت آمله ... لا ألهينـــك إنى عنك مشغول (١)
فقلت خلوا سبيلى لا أبا لكم ... فكل ما قدر الرحـــمن مفعول (٢)
كل ابن أنثى وإن طـــالت سلامته ... يومًا على آلة حدباء محمول (٣)
نبئت أن رسول الله أوعدنى ... والعفو عند رســـول الله مأمول (٤)
مهلاً هداك الذى أعطاك نافلة الـ ... ـقرآن فيها مواعيظ وتفصيل (٥)
لا تأخذنى بأقوال الوشاة ولم ... أذنب ولو كثرت فى الأقاويل (٦)
لقد أقوم مقامًا لو يقوم به ... يرى ويسمع ما قد أسمع الفيل (٧)
لظل يرعد إلا أن يكـــون له ... من الرسول بإذن الله تنويل (٨)
حتى وضعت يمينـــى ما أنازعه ... فى كف ذى نقمات قيله القيل (٩)
فلهو أخوف عندى إذ أكلمه ... وقيل إنك منسوب ومسئول (١٠)
من ضيغم بضراء الأرض مخدره ... فى بطن عثر غيل دونه غيل (١١)

---

(١) آمله : أترجاه وأتمنى إعانته

(٢) خلوا سبيلى : اتركونى أقف بين يدى الرسول ﷺ فإنه سيعفو عنى .

(٣) آلة حدباء : نعش .

(٤) نبئت : أخبرت ، مأمول : مرجو .

(٥) هداك : زادك هدى ؛ فإنه لا يدعو له بالهدى لأنه الهادى المهدى ، نافلة : زيادة ؛ لأن القرآن هدية زائدة عن النبوة ومنحة الرسالة .

(٦) لم أذنب : لم أخطىء فى حقك .

(٧) مقام : أى مجلس الرسول ﷺ ، يقوم : يحضر .

(٨) يرعد : يرتعش بسبب الخوف ، تنويل : عطاء .

(٩) لا أنازعه : أى أطيعه . نقمات : جمع نقمة : الســطوة . قيله القيل : قوله النافذ .

(١٠) أخوف : أى هو صلى الله عليه وسلم أشد إخافة وإرهابا . منسوب ومسئول : أى منسوب إلى أشياء قلتها ومسئول عنها .

(١١) الضيغم : الأسد . ضراء الأرض : الأرض التى بها شجر . مخدره : غابة الأســد . عثر : مكان تكثر فيه السباع . والغيل : الأجمة ، وهى الشجر الكثير الملتف .

يَغدو فيلحم ضِرغَامَين عَيشهمَا ... لحم من الناس مَعفور خَراديلُ (١)

إذا يساور قرنا لا يحـــــل له ... أن يترك القرنَ إلا وهو مَفلولُ (٢)

منه تَظل سِباع الجـــو نافرة ... ولا تمشّى بـــواديه الأَراجيلُ (٣)

ولا يزالُ بواديه أخـــو ثقة ... مضرج البز والدُّرسان مَأكولُ (٤)

إنَّ الرسولَ لَنُورٌ يُستَضاءُ بِهِ ... مُهَنَّدٌ مِنْ سُيوفِ اللهِ مَســلُولُ (٥)

فِى عُصْبَةٍ مِنْ قُريشٍ قَال قائلُهم ... بِبطْنِ مَكَة لَمَّا أسلـــموا زُولوا (٦)

زَالوا فما زال أنكاسٌ ولا كَشف ... عند اللقاءِ ولا مـــيل مَعازيلُ (٧)

شُم العرانينَ أبطال لَبُوسُهمُ ... من نُسج داود فى الهَيجا سَرابيلُ (٨)

بيض سوابغُ قد شكت لها حلق ... كأنها حلق القفعاء مجْدُولُ (٩)

لَيسوا مفَاريحَ إنْ نالتْ رمَاحهم ... قومًا وليسوا مجاريعًا إذا نِيلوُا (١٠)

---

(١) يغدو : يخرج أول النهار للصيد · يلحـم : يطعم لحما · ضرغامين : مثنى ضرغام : شبل الأسد · معفور : ملقى فى التراب · خراديل : مقطع قطعا صغيرة ·

(٢) يســاور : يواثب ويصارع · القرن : المماثل فى الشجاعة · مفلول : المكسور المهزوم ·

(٣) الجو : ما بين الســماء والأرض · نافرة : بعيدة · الأراجيل : جماعات من الرجال · جمع أرجال ، التى هى جماعة الرجال ·

(٤) أخو ثقة : الواثق بنفسه · مضـــرج : مخضب بالدماء · البز : السلاح · الدرسان : مفرده دريس : الخلق من الثياب ·

(٥) يستضاء به : يهتدى به إلى نور الحق · مهند : سيف طبع فى الهند · مسلول : مخرج من غمده ·

(٦) العصبة : الجماعة ما بين العشرة إلى الأربعين زولوا : فعل أمر من زال التامة أى التى لها فاعل · أى تحولوا وانتقلوا ·

(٧) الأنكاس : المهانون ، ولا كـــشف : أى لا ينكشفون فى الحرب بمعنى : لا ينهزمون ·

(٨) شم : جمع أشم ، وهى علامة العزة والســيادة وهو علو قصبة الأنف مع استواء أعلاه · اللبوس : ما يلبس من عده الحرب ، الهيجا : الحرب ، سرابيل : دروع ·

(٩) بيض : مجلوة ، مجدول : محكم صنعه ·

(١٠) مفاريح : كثيرو الفرح ، نيلوا : أصيبوا ·

يَمشونَ مشى الجِمالِ الزُّهرِ يعصمهُم ضَرب إذا عرَّدَ السودُ التنَابيلُ (١)
لاَ يقعُ الطعنُ إلا فــي نُحورهِمُ ومَالهم عن حِياضِ الموتِ تهليلُ (٢)

● كعب يسترضى الأنصار بمدحهم :

قال ابن إسحاق : وقال عاصم بن عمر بن قتادة : فلما قال كعب : إذا عرد السود التنابيل ، وإنما يريدنا معشر الأنصار ، لما كان صاحبنا صنع به ما صنع وخص المهاجرين من قريش من أصحاب رسول الله ﷺ بمدحته غضبت عليه الأنصار ، فقال بعد أن أسلم يمدح الأنصار ، ويذكر بلاءهم مع رسول الله ﷺ ، وموضعهم من اليمن :

من سرَّه كَرمُ الحيــاةِ فلا يَزل فى مقنبٍ من صَالحى الأَنْصَارِ (٣)
وَرِثوا المَكارم كابرًا عــن كَابرٍ إن الخيَار هــم بَنو الأخيارِ
المُكرِهين الســمهرى بأذرع كسوالف الهنــدى غير قصارِ (٤)
والناظرينَ بأعينٍ محمــرة كالجمر غير كليــلة الأبصارِ (٥)
والبائعينَ نفوســهُم لنبيِّهم للمــوتِ يَوم تَعانُق وكِرَارِ (٦)
والذائدينَ النــاس عن أديانهم بالمشرفىِّ وبالقنَا الخطــارِ (٧)
يتَطهرون يَرونــه نُسكا لهم بدماءِ من عَلقوا مــن الكفارِ (٨)
دَربوا كمــا دربتْ ببطنِ خَفية غُلب الرقاب من الأسودِ ضَوارِى (٩)

---

(١) الزهر : البيض ، يعصمهم : يمنعهم ، التنابيل : القصار .

(٢) حياض الموت : موارد الهلاك ، ويريد بها أرض المعركة ، تهليل : تأخر .

قال ابن هشام : يقال إن رسول الله ﷺ قال له حين أنشده : « بانت سعاد » : لو ذكرت الأنصار بخير فإنهم لذلك أهل ، فقال كعب هذه الأبيات .

(٣) المقنب : جماعة الخيل . والمراد به هنا الأنصار على ظهور خيلهم .

(٤) السمهرى : الرمح . سوالف : حواشى . الهندى : السيف المنسوب إلى الهند .

(٥) بأعين محمرة : يريد أن الشجاع إذا غضب احمرت عيناه .

(٦) تعانق : يريد به التحام الشجعان فى ميدان القتال .

(٧) المشرفى : السيف . القنا : الرماح . الخطار : المهتز .

(٨) يرونه : يعتقدونه . نسكا : عبادة .

(٩) دربوا : تعودوا . خفية : مكان تكثر فيه الأسود . غلب : غلاظ .

وإذا حَلَلت ليمنـــعوك إليهم أصبحتَ عِندَ معَاقلِ الأعفارِ (١)
ضَرَبُوا عَليًّا يَوم بَدرٍ ضــــربةً دَانت لوقعتـــها جَميع نَزارِ (٢)
لَو يعلمُ الأقوام علمــــى كله فيهم لصـــدقنى الذين أمارِى (٣)
قَومٌ إذا خَوتِ النجـــوم فإنهم للطارقينَ الـــبازلين مَقارِى (٤)
فِى الغُرِّ مِن غسَّانَ مـــن جرثومةٍ أعيتْ مَحافرها على المِنقارِ (٥)

* * *

غَزْوَةُ تَبُوك (٦) فى سَنَة تِسْعٍ

● أمر الرسول ﷺ بالاستعداد لتبوك :

قال ابن إسحاق : ثم أقام رسول الله ﷺ بالمدينة ما بين ذى الحجة إلى رجب ثم أمر الناس بالتهيؤ لغزو الروم . وقد ذكر لنا الزهـــرى ويزيد بن رومان وعبد الله بن أبى بكر وعاصم بن عمر بن قتادة ، وغيرهم من علمائنا ، كل حدث فى غزوة تبوك ما بلغه عنها ، وبعض القوم يحدث ما لا يحدث بعض . أن رسول الله ﷺ أمر أصحابه بالتهيؤ لغزو الروم ، وذلك فى زمن من عُسرة الناس ، وشدة من الحر ، وجدب من البلاء وحين طابت الثمار . والناس يحبون المقام فى ثمارهم وظلالهم ، ويكرهون الشخوص على الحال من الزمان الذى هم عليه ، وكان رســول الله ﷺ قلما يخرج فى غزوة إلا كَنَّى عنها ، وأخبر أنه يريد غير الوجه

---

(١) الأعفار : الوعول الصغيرة يضرب بها المثل لامتناعها فى قمم الجبال .
(٢) ضربوا عليًّا : يريد به عليا بن مسعود بن مازن الغسانى .
(٣) أمارى : أجادل .
(٤) خوت : سقط ولم تمطر . مقارى : المقارى : الجفان التى يصنع فيها الطعام .
(٥) وتروى : النقار .
(٦) تبوك : بفتح التاء موضع بين وادى القرى والشام ، وقيل بركة لأبناء سعد من بنى عذرة وقيل تبوك بين الحجر وأول الشام ، وهو حصن به عين ونخل وحائط ينسب إلى النبى ﷺ . ويقال إن أصحاب الأيكة الذين بعث إليهم شعيب عليه السلام كانوا فيها ولم يكن شعيب منهم وإنما كان من مدين ، قال يحيى بن جابر توجه النبى ﷺ فى سنة تسع للهجرة إلى غزوة تبوك من أرض الشام وهى آخر غزواته ﷺ .

الذى يصمد له (١) ، إلا ما كان من غزوة تبوك ، فإنه بيَّنها للناس ، لبعد الشقة ، وشدة الزمان ، وكثرة العدو الذى يصمد له ، ليتأهب الناس لذلك أهبته ، فأمر الناس بالجهار ، وأخبرهم أنه يريد الروم (٢) .

• تخلف الجد بن قيس :

قال رسول الله ﷺ ذات يوم وهو فى جهازه ذلك للجد بن قيس أحد بنى سلمة يا جد : هل لك العام فى جلاد بنى الأصفر (٣) ؟ فقال : يا رسول الله ، أو تأذن لى ولا تفتنى ؟ فوالله لقد عرفتْ قومى أنه ما من رجل بأشد عَجَبًا بالنساء منى ، وإنى أخشى إن رأيت نساء بنى بالأصفر أن لا أصبر ، فأعرض عنه رسول الله ﷺ وقال : قد أذنت لك . ففى الجد بن قيس نزلت هذه الآية : ﴿ **ومنهم من يقول ائذن لى ولا تفتنى ألا فى الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين** ﴾ (٤) .

أى إن كان إنما خشى الفتنة من نساء بنى الأصفر ، وليس ذلك به ، فما سقط فيه من الفتنة أكبر بتخلفه عن رسول الله ﷺ ، والرغبة بنفسه عن نفسه يقول تعـالى : « وإن جهنم لمن ورائه » .

شأن المنافقين : وقال قوم من المنافقين بعضهم لبعض : لا تنفروا فى الحرّ ، زهادة فى الجهاد وشكا فى الحق ، وإرجافا برسول الله ﷺ ، فأنزل الله تبارك وتعالى فيهم : ﴿ **وقالوا لا تنفروا فى الحرِّ قل نارُ جهنـم أشد حرًّا لو كانوا يفقهون * فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً جزاء بما كانوا يكسبون** ﴾ (٥) .

حض الأغنياء على النفقة : قال ابن إسحاق : ثم إن رسول الله ﷺ جد فى سفره ، وأمر الناس بالجهاز والانكماش ، وحض أهل الغنى على النفقة والحملان

---

(١) يصمد له : يقصده .

(٢)وهذه استراتيجية عسكرية سبق بها الرسول ﷺ العالم منذ أكثر من الف وأربعمائة عام ، ليعلم القادة الدبلوماسية فى قيادة الجيوش .

(٣) بنو الأصفر : يريد الروم .

(٤) سورة التوبة : الآية ٤٩ .

(٥) سورة التوبة : ٨١ - ٨٢ .

فى سبيل الله ، فحمل رجال من أهل الغنى واحتسبوا [١] ، وأنفق عثمان بن عفان فى ذلك نفقة عظيمة ، لم ينفق أحد مثلها [٢] .

البكَّاءون والمعذَّرون والمتخلفون : قال ابن إسحاق : ثم إن رجالا من المسلمين أتوا رسول الله ﷺ ، وهم البكاءون ، وهم سبعة نفر من الأنصار وغيرهم من بنى عمرو بن عوف : سالم بن عمير ، وعُلبة بن زيد ، أخو بنى حـارثة ، وأبو ليلى عبد الرحمن بن كعب ، أخو بنى مازن بن النجار ، وعمرو بن حمام بن الجموح ، أخو بنى سلمة ، وعبد الله بن المغفل المزَنى - وبعض الناس يقول : بل هو عبد الله ابن عَمرو المزنى - وهرمى بن عبد الله ، أخو بنى واقف ، وعـرباضُ بن سارية الفزارى . فاستحملوا رسول الله ﷺ ، وكانوا أهل حاجة ، فقال : لا أجد ما أحملكم عليه ، فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنًا الاَّ يجدوا ما ينفقون .

قال ابن إسحاق : فبلغنى أن ابن يامين بن عمير بن كعب النضرى لَقى أبا ليلى عبد الرحمن بن كعب وعبد الله بن مغفل وهما يبكيان ، فقال لهما : ما يبكيكما ؟ قالا : جئنا رسول الله ﷺ ليحملنا . فلم نجد عنده ما يحملنا عليه وليس لنا ما نتقوى به على الخروج معه فأعطاهما ناضحًا [٣] له ، فارتحلاه ، وزودهما شيئًا من تمر فخرجا مع رسول الله ﷺ .

• شأن المعذَّرين :

قال ابن إسحاق : وجاءه المعذَّرون من الأعراب ، فاعتذروا إليه ، فلم يعذرهم الله تعالى . وقد ذكر لى أنهم نفرُ من بنى غِفار .

ثم استتب [٤] برسول الله ﷺ سفره ، وأجمع السير ، وقد كان نفر من المسلمين أبطأت بهم النية عن رسول الله ﷺ ، حتى تخلفوا عنه ، عن غير شك

---

(١) احتسبوا : أى احتسبوا الأجر عند الله ابتغاء مرضاته .

(٢) قال ابن هشام : حدثنى من أثق به أن عثمان بن عفان أنفق فى جيش العُسرة فى غزوة تبوك ألف دينار - وكان فى ذلك الوقت مبلغًا كبيراً - فقال رسول الله ﷺ « اللهم ارض عن عثمان فإنى عنه راض » يا لها من منزلة عظيمة نالها سيدنا عثمان بفضل إنفاقه فى سبيل الله !! .

(٣) الناضح : الجمل الذى يُسقى عليه الماء .

(٤) استتب : انتظم وتتابع .

ولا ارتياب منهم : كعب بن مالك بن أبى كعـب ، أخو بنى سلمة ، ومرارة بن الربيع ، أخو بنى عمرو بن عوف ، وهـلال بن أمـية ، أخو بنى واقف ، وأبو خيثمة ، أخو بنى سالم بن عوف وكانوا نفر صدق ، لا يتهمون فى إسلامهم ·

فلما خرج رسول الله ﷺ ضرب عسكره على ثنية الوداع [١] ·

قال ابن إسحاق : وضرب عبد الله بن أُبىٍّ معه على حدة عسكره أسفل منه ، نحو ذباب [٢] وكان فيما يزعمون ليس بأقل العسكرين · فلما سار رسول الله ﷺ تخلف عنه عبد الله بن أُبىٍّ ، فيمن تخلف من المنافقين وأهل الريب [٣] ·

المنافقون يرجفون بعلىٍّ : وخلف رسول الله ﷺ على بن طالب ، رضوان الله عليه ، إلى أهله ، وأمره بالإقامة فيهم ، فأرجف به المنافقون ، وقالوا : ما خلفه إلا استثقالا له ، وتخففا منه · فلـما قال ذلك المنافـقون ، أخذ على بن أبى طالب ، رضوان الله عليه سلاحه ثم خرج حتى أتى رسول الله ﷺ وهو نازل بالجرف [٤] ، فقال : يا نبى الله ، زعم المنافقون أنك إنما خلفتنى أنك استثقلتنى وتخففت منى ، فقال: كذبوا ، ولكنى خلفتك لما تركت ورائى ، فارجع فاخلفنى فى أهلى وأهلك ، أفلا ترضى يا على أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى ؟ إلا أنه لا نبى بعدى ، فرجع على إلى المدينة ومضى رسول الله ﷺ على سفره ·

قال ابن إسحاق : وحدثنى محمد بن طلحة بن يزيد بن ركانة ، عن إبراهيم ابن سعد بن أبى وقاص ، عن أبيه سعد : أنه سمع رسول الله ﷺ يقول لعلى هذه المقالة ·

قال ابن إسحاق : ثم رجع على إلى المدينة ، ومضى رسول الله ﷺ على سفره ·

أبو خيثمة وعمير بن وهب يلحقان بالرسول : ثم إن أبا خَيْثَمة رجع بعد أن

---

(١) قال ابن هشام : واستعمل على المدينة محمد بن مسلمة الأنصارى ·

وذكر عبد العزيز بن محمد الدراوردى عن أبيه : أن رسول الله ﷺ استعمل على المدينة ، مخرجه إلى تبوك ، سباع بن عرفطة ··

(٢) ذباب : جبل بالمدينة ·

(٣) أى أهل الشك ·

(٤) الجرف : مكان بينه وبين المدينة ثلاثة أميال ·

سار رسول الله ﷺ أياما إلى أهله في يوم حار ، فوجد امرأتين له في عريشين (١) لهما في حائطه (٢) قد رشت كل واحدة منهما عريشها ، وبردت له فيه ماء وهيأت له فيه طعاما ، فلما دخل ، قام على باب العريش ، فنظر إلى امرأتيه وما صنعتا له ، فقال : رسول الله ﷺ في الضح (٣) والريح والحر ، وأبو خيثمة في ظل بارد ، وطعام مهيأ ، وامرأة حسناء ، في ماله مقيم ، ما هذا بالنصف ! ثم قال : والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله ﷺ ، فهيئا لي زادا ، ففعلتا ، ثم قدم ناضحه فارتحله ، ثم خرج في طلب رسول الله ﷺ حتى أدركه حين نزل بتبوك . وقد كان أدرك أبا خيثمة عمير بن وهب الجمحي في الطريق ، يطلب رسول الله ﷺ ، فترافقا ، حتى إذا دنوا من تبوك . قال أبو خيثمة لعمير ابن وهب : إن لي ذنبا ، فلا عليك أن تخلف عني حتى آتي رسول الله ﷺ ففعل حتى إذ دنا من رسول الله ﷺ وهو نازل بتبوك ، قال الناس : هذا راكب على الطريق مُقبل ، فقال رسول الله ﷺ : كن أبا خيثمة : فقالوا يا رسول الله هو والله أبو خيثمة (٤) . فلما أناخ أقبل فسلم على رسول الله ﷺ فقال له رسول الله ﷺ خيراً ودعا له بخير (٥) .

• ما قاله النبي وهو بالحِجر (٦) :

قال ابن إسحاق : وقد كان رسول الله ﷺ حين مر بالحجر نزلها واستقى الناس من بئرها . فلما راحوا قال رسول الله ﷺ : لا تشربوا من مائها شيئًا ، ولا تتوضؤا منه للصلاة وما كان من عجين عجنتموه فاعلفوه الإبل ، ولا تأكلوا منه شيئًا ، ولا يخرجن أحد منكم الليلة إلا ومعه صاحب له (٧) . ففعل الناس ما أمرهم به رسول الله ﷺ ، إلا أن رجلين من بني ساعدة خرج أحدهما لحاجته ، وخرج

---

(١) العريش : ما يستظل به . (٢) الحائط : البستان (٣) الضح : الشمس .

(٤) هذا من الوحي على لسانه فسبحان من أجراه على لسانه .

(٥) اسمه مالك بن قيس ، وقال [illegible] شعراً منه :

لما رأيتُ الناس في الدين نافقوا [illegible] أتيت التي كانت أعفَّ وأكرمَا

وبايعت باليمنى يدي لمحمد فلم أكتسب إثما ولم أغش محرمَا

(٦) الحجر : اسم ديار ثمود بوادي القرى بين المدينة والشام .

(٧) وهذا لحكمة يعلمها الله ورسوله حتى لا يحدث لأحد ضرر .

الآخر فى طلب بعير له ، فأما الذى ذهب لحاجته فإنه خُنق على مذهبه ، وأما الذى ذهب فى طلب بعيره فاحتملته الريح ، حتى طرحته بجبلى طيىء . فأخبر بذلك رسول الله ﷺ فقال : ألم أنهكم أن يخرج منكم أحد إلا ومعه صاحبه ، ثم دعا رسول الله ﷺ للذى أصيب على مذهبه فشُفى ، وأما الآخر الذى وقع بجبلى طيء ، فإن طيئًا أهدته لرسول الله ﷺ حين قدم المدينة .

والحديث عن الرجلين عن عبد الله بن أبى بكر ، عن عباس بن سهل بن سعد الساعدى ، وقد حدثنى عبد الله بن أبى بكر أن قد سمى له العباس الرجلين ، ولكنه استودعه إياهما [(١)] ، فأبى عبد الله أن يسميهما لى [(٢)] .

قال ابن إسحاق : فلما أصبح الناس ولا ماء معهم شكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ ، فدعا رسول الله ﷺ ، فأرسل الله سبحانه سحابة فأمطرت حتى ارتوى الناس ، واحتملوا حاجتهم من الماء .

قال ابن إسحاق : فحدثنى عاصم بن عمر بن قتادة ، عن مُحمود بن لبيد ، عن رجال من بنى عبد الأشهل ، قال : قلت لمحمود : هل كان الناس يعرفون النفاق فيهم ؟ قال : نعم والله ، إن كان الرجل ليعرفه من أخيه ومن أبيه ومن عمه وفى عشيرته ، ثم يلبس بعضهم بعضا على ذلك . ثم قال محمود : لقد أخبرنى رجال من قومى عن رجل من المنافقين معروف نفاقه ، كان يسير مع رسول الله ﷺ حيث سار ، فلما كان من أمر الناس بالحجر ما كان ، ودعا رسول الله ﷺ حين دعا ، فأرسل الله السحابة ، فأمطرت حتى ارتوى الناس قالوا : أقبلنا عليه نقول : ويحك ، هل بعد هذا شئ ؟! قال : سحابة مارة [(٣)] .

تَقَوُّل ابن اللصيت : قال ابن إسحاق : ثم إن رسول الله ﷺ سار حتى إذا

---

(١) أى استكتمه السر .

(٢) قال ابن هشام : بلغنى عن الزهرى أنه لما مر رسول الله ﷺ بالحجر سجَّى ثوبه على وجهه ، واستحث راحلته ، ثم قال : لا تدخلوا بيوت الذين ظلموا إلاَّ وأنتم باكون ، خوفًا أن يصيبكم مثل ما أصابهم .

(٣) فمن قال مطرنا بفضل الله فهو مؤمن بالله كافر بالكوكب أما من قال مطرنا بنوء كذا وكذا فهو كافر بالله مؤمن بالكوكب .

كان ببعض الطريق ضلت ناقته ، فخرج أصحابه فى طلبها ، وعند رسول الله ﷺ ، رجل من أصحابه ، يقال له عمارة بن حزم ، وكان عقبيًا بدريًّا ، وهو عم بنى عمرو ابن حزم ، وكان فى رحله زيد بن اللصيت القينقاعى ، وكان منافقا .

قال ابن إسحاق : فحدثنى عاصم بن عمر بن قتادة ، عن محمود بن لَبيد ، عن رجال من بنى عبد الأشهل ، قالوا : فقال زيد بن اللصيت ، وهو فى رحل عمارة وعمارة عند رسول الله ﷺ : أليس محمد يزعم أنه نبى ، ويخبركم عن خبر السماء ، وهو لا يدرى أين ناقته ؟ فقال رسول الله ﷺ وعمارة عنده : إن رجلا قال : هذا محمد يخبركم أنه نبى ، ويزعم أنه يخبركم بأمر السماء وهو لا يدرى أين ناقته ، وإنى والله ما أعلم إلا ما علمنى الله وقد دلنى الله عليها ، وهى فى هذا الوادى ، فى شعب كذا وكذا ، قد حبستها شجرة بزمامها ، فانطلقوا حتى تأتونى بها [١] ، فذهبوا ، فجاءوا بها . فرجع عمارة بن حزم إلى رحله ، فقال : والله لعجب من شىء حدثناه رسول الله ﷺ آنفا ، عن مقالة قائل أخبره الله عنه بكذا وكذا ، كالذى قال زيد بن اللصيت ، فقال رجل ممن كان فى رحل عمارة ولم يحضر رسول الله ﷺ : زيد والله قال هذه المقالة قبل أن تأتى . - فأقبل عمارة على زيد يجأ [٢] فى عنقه ويقول إلىَّ عباد الله ، إن فى رحلى لداهية وما أشعر ! اخرج أى عدو الله من رحلى ، فلا تصحبنى .

● **قصة أبى ذَرٍّ :**

قال ابن إسحاق : فزعم بعض الناس أن زيدًا تاب بعد ذلك ، وقال بعض الناس لم يزل متهمًا بشر حتى هلك . ثم مضى رسول الله ﷺ سائرًا ، فجعل يتخلف عنه الرجل ، فيقولون : يا رسول الله ، تخلف فلان ، فيقول دعوه فإن يكُ فيه خير فسيلحقه الله تعالى بكم ، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه ، حتى قيل : يا رسول الله ، قد تخلف أبو ذر [٣] وأبطأ به بعيره ، فقال : دعوه فإن يك فيه

---

(١) أخبر الله نبيه بمكان الناقة ليرد كيد المنافق فى نحره ، وليؤكد الحقيقة أن الرسول ﷺ مؤيد من الله وأن الخبر يأتيه حقًّا من السماء ، ولذلك وجدوا الناقة كما وصفها لهم الرسول ﷺ ، وهذه من معجزاته .

(٢) يجأ : يطعن .

(٣) أبو ذر : اسمه جندب بن جنادة . وقيل : زيد بن عشرقة . وقيل : جندب بن عبد الله . وقيل : جندب بن السكن ، والأول أصح والله أعلم .

خير فسيلحقه الله بكم ، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه ، وتلوم [١] أبو ذر على بعيره ، فلما أبطأ عليه أخذ متاعه فحمله على ظهره ثم خرج يتبع أثر رسول الله ﷺ ماشيًا ، ونزلَ رسول الله في بعض منازله فنظر ناظر من المسلمين فقال : يا رسول الله ، إن هذا الرجل يمشى على الطريق وحده ، فقال رسول الله ﷺ : كن أبا ذر [٢] فلما تأمله القوم قالوا : : يا رسول الله ، هو والله أبو ذر ، فقال رسول الله ﷺ : رحم الله أبا ذر ، يمشى وحده ، ويموت وحده ، ويُبعث وحده ·

قال ابن إسحاق : فحدثنى بُريدة بن سفيان الأسْلَمى ، عن محمد بن كَعب القُرظى ، عن عبد الله بن مسعود ، قال : لما نفى عثمان أبا ذر إلى الربَذة وأصابه بها قدره [٣] ، لم يكن معه أحد إلا امرأته وغلامه ، فأوصاهما أن أغسلانى وكفّنانى ، ثم ضعانى على قارعة الطريق ، فأول ركب يمر بكم فقولوا : هذا أبو ذر صاحب رسول الله ﷺ ، فأعينونا على دفنه ، فلما مات فعلا ذلك به · ثم وضعاه على قارعة الطريق ، وأقبل عبد الله بن مسعود فى رهط من أهل العراق عمار ، فلم يرعهم إلا بالجنازة على ظهر الطريق ، قد كادت الإبل تطؤها · وقام إليهم الغلام · فقال : هذا أبو ذر صاحب رسول الله ﷺ فأعينونا على دفنه · قال : فاستهل عبد الله بن مسعود يبكى ويقول : صدق رسول الله ﷺ ، تمشى وحدك ، وتموت وحدك وتُبعث وحدك · ثم نزل هو وأصحابه فواروه [٤] ، ثم حدثهم عبد الله بن مسعود حديثه ، وما قال له رسول الله ﷺ فى مسيره إلى تبوك ·

• تخويف المنافقين المسلمين وما نزل فيهم :

قال ابن إسحاق : وقد كان رهط من المنافقين ، منهم وديعة بن ثابت ، أخو بنى عمرو بن عوف ، ومنهم رجل من أشجع ، حليف لبنى سلمة ، يقال له : مخشّن بن حمير يشيرون إلى رسول الله ﷺ وهو منطلق إلى تبوك ، فقال بعضهم لبعض : أتحسبون جلاد بنى الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضا ؟! والله لكأنا بكم غدا مقرنين فى الحبال ، إرجافا وترهيبا للمؤمنين ، فقال مخشن بن حمير : والله

---

(١) تلوم : تمهل ·

(٢) كن أبا ذر : لفظ الأمر ، ومعناه الدعاء : كما تقول أسلم سلمك الله ·

(٣) أى وافته المنية وأتاه الموت ·   (٤) أى دفنوه ·

لوددت أنى أقاضى على أن يضرب كل رجل منا مائة جلدة ، وإنا ننفلت أن ينزل فينا قرآن لمقالتكم هذه ·

وقال رسول الله ﷺ - فيما بلغنى - لعمار بن ياسر : أدرك القوم ، فإنهم قد احترقوا ، فسلهم عما قالوا : فإن أنكروا فقل : بلى قلتم كذا وكذا ، فانطلق إليهم عمار ، فقال ذلك لهم : فأتوا رسول الله ﷺ يعتذرون إليه ، فقال وديعة بن ثابت ، ورسول الله ﷺ واقف على ناقته ، فجعل يقول وهو آخذ بحقبها (١) : يا رسول الله ، إنما كنا نخوض ونلعب ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ **ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب** ﴾ · وقال مخشن بن حمير : يا رسول الله ، قعد بى اسمى واسم أبى ، وكأن الذى عفى عنه فى هذه الآية مخشن بن حمير ، فتسمى عبد الرحمن ، وسأل الله تعالى أن يقتله شهيداً لا يعلم بمكانه ، فقتل يوم اليمامة ، فلم يوجد له أثر (٢) .

الصلح مع صاحب أيْلَة : ولما انتهى رسول الله ﷺ إلى تبوك ، أتاه يحنة ابن رؤبة ، صاحب أيلة ، فصالح رسول الله ﷺ ، وأعطاه الجزية، وأتاه أهل جرباء وأذرح ، فأعطوه الجزية ، فكتب رسول الله ﷺ لهم كتابا ، فهو عندهم ·

فكتب ليحنة بن رؤبة :

بسم الله الرحمن الرحيم : هذه أمنة من الله ومحمد النبى رسول الله ليحنة بن رؤبة وأهل أيلة ، سفنهم وسيارتهم فى البر والبحر : لهم ذمة الله ، وذمة محمد النبى ، ومن كان معهم من أهل الشام ، وأهل اليمن ، وأهل البحر ، فمن أحدث منهم حدثا ، فإنه لا يحول ماله دون نفسه ، وإنه طيب لمن أخذه من الناس ، وإنه لا يحل أن يمنعوا ماء يردونه ، ولا طريقا يريدونه ، من بر أو بحر ·

• خالد وأُكَيْدَر دَومة :

ثم إن رسول الله ﷺ دعا خالد بن الوليد فبعثه إلى أكيدر دومة ، وهو أُكيدر ابن عبد الملك ، رجل من كندة كان ملكًا عليها ، وكان نصرانيًّا ، فقال رسول الله ﷺ لخالد : إنك ستجده يصيد البقر · فخرج خالد ، حتى إذا كان من حصنه

(١) الحقب : حزام يشد به على حقو الجمل ·

(٢) أخلص فى الدعاء فاستجاب الله منه ·

بمنظر العين ، وفى ليلة مقمرة صائفة ، وهو على سطح له ، ومعه امرأته ، فباتت البقر تحك بقرونها باب القصر ، فقالت له امرأته : هل رأيت مثل هذا قط ؟ قال : لا والله ! قالت : فمن يترك هذه ؟ قال : لا أحد · فنزل فأمر بفرســـه ، فأسرج له ، وركب معه نفر من أهل بيته ، فيهم أخ له يقال له حسان · فركب ، وخرجوا معه بمطاردهم · فلما خرجوا تلقتهم خيل رســـول الله ﷺ ، فأخذته ، وقتلوا أخاه ، وقد كان عليه قباء من ديباج مخوص بالذهب ، فاستلبه خالد ، فبعث به إلى رسول الله ﷺ قبل قدومه به عليه ·

قال ابن إسحاق : فحدثنى عاصم بن عمر بن قتادة · عن أنس بن مالك : رأيت قباء أكيدر حين قدم به على رسول الله ﷺ · فجعل المسلمون يلمسونه بأيديهم ، ويتعجبون منه ، فقال رسول الله ﷺ : أتعجبون من هذا ؟ فوالذى نفسى بيده لمناديل سعد بن معاذ فى الجنة أحسن من هذا [1] ·

قال ابن إسحاق : ثم إن خالدًا قدم بأكيدر على رسول الله ﷺ ، فحقن له دمه ، وصالحهُ على الجزية ، ثم خلى سبيله ، فرجع إلى قريته ، فقال رجل من طيء : يقال له بُجير بن بجرة ، يذكر قول رسول الله ﷺ لخالد : إنك ستجده يصيد البقر ، وما صنعت البقر تلك الليلة حتى استخرجته ، لتصديق قول رسول الله ﷺ :

تباركَ سائقُ البقـــراتِ إنِّى ... رأيتُ اللهَ يهدى كَل هَادِ
فَمنْ يكُ حائدًا عن ذى تَبوك ... فإنا قد أمِرنا بالجهـــادِ

فأقام رسول الله ﷺ بتبوك بضع عشرة ليلة ، لم يجاوزها ، ثم انصرف قافلاً إلى المدينة ·

• وادى المشقق وماؤه والمعجزة :

وكان فى الطريق ماء يخرج من وشل ، وما يروى الراكب والراكبين والثلاثة ، بواد يقال له وادى المشقق ، فقال رسول الله ﷺ : من سبقنا إلى ذلك الوادى فلا يستقين منه شيئًا حتى نأتيه ، قال : فسبقه إليه نفر من المنافقين ، فاستقوا ما فيه ،

---

(١) والمناديل مما يمتهن فما بالك بالملابس ·

فلما أتاه رسول الله ﷺ وقف عليه فلم ير فيه شيئًا فقال: من سبقنا إلى هذا الماء ؟! فقيل له يا رسول الله · فلان وفلان ، فقال : أولم أنههم أن يستقوا منه شيئًا حتى آتيه ثم لعنهم رسول الله ﷺ ، ودعا عليهم ثم نزل فوضع يده تحت الوشل ، فجعل يصب فى يده ما شاء الله أن يصب ، ثم نضحه به ، ومسحه بيده ، ودعا رسول الله ﷺ بما شاء الله أن يدعو به ، فانخرق من الماء - كما يقول من سمعه - ما إن له حسا كحس الصواعق ، فشرب الناس ، واستقوا حاجتهم منه · فقال رسول الله ﷺ : لئن بقيتم أو من بقى منكم لتسمعن بهذا الوادى ، وهو أخصب ما بين يديه وما خلفه ·

ذُو البجادين ودفنه وتسميته : قال : وحدثنى محمد بن إبراهيم بن الحارث التيمى ، أن عبد الله بن مسعود كان يحدث ، قال : قمت من جوف الليل ، وأنا مع رسول الله ﷺ ، فى غزوة تبوك ، قال : فرأيت شعلة من نار فى ناحية العسكر ، قال : فاتبعتها أنظر إليها ، فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر ، وإذا عبد الله ذو البجادين المزنى قد مات ،وإذا هم قد حفروا له ، ورسول الله ﷺ فى حفرته ، وأبو بكر وعمر يدنيانه إليه ، وهو يقول : أدنيا إلىَّ أخاكما ، فدلياه إليه ، فلما هيأه لشقه قال : اللهم إنى أمسيت راضيا عنه ، فارض عنه · قال : يقول عبد الله بن مسعود : ياليتنى كنت صاحب الحفرة ·

حديث أبى رهم فى تَبوك : قال ابن إسحاق : وذكر ابن شهاب الزهرى ، عن ابن أكيمة الليثي ، عن ابن أخى أبى رهم الغفارى ، أنه سمع أبا رهم كلثوم بن الحصين ، وكان من أصحاب رسول الله ﷺ الذين بايعوا تحت الشجرة ، يقول : غزوت مع رسول الله ﷺ غزوة تبوك ، فسرت ذات ليلة معه ونحن بالأخضر قريبا من رسول الله ﷺ وألقى الله علينا النعاس فطفقت أستيقظ وقد دنت راحلتى من راحلة رسول الله ﷺ ، فيفزعنى دنوها منه ، مخافة أن أصيب رجله فى الغرز ، فطفقت أحوز [١] راحلتى عنه ، حتى غلبتنى عينى فى بعض الطريق ، ونحن فى بعض الليل ، فزاحمت راحلتى راحلة رسول الله ﷺ ورجله فى الغرز ، فما استيقظت إلا بقوله حِسْ [٢] ، فقلت : يا رسول الله ، استغفر لى · فقال : سر

(١) أحوز : أبعد ·　　　(٢) حس : كلمة تقال عند وجود الألم ·

فجعل رسول الله ﷺ يسألنى عمن تخلف من بنى غفار ، فأخبره به فقال وهو يسألنى : ما فعل النفر الحمر الطوال الثطاط (١) فحدثته بتخلفهم · قال : فما فعل النفر السود الجعاد القصار ؟ قال : قلت : والله ما أعرف هؤلاء منا · قال بلى ، الذين لهم نَعَمٌ بشبكَةَ شدخ (٢) فتذكرتهم فى بنى غفار ، ولم أذكرهم حتى ذكرت أنهم رهط من أسلم كانوا حلفاء فينا ، فقلت : يا رسول الله ، أولئك رهط من أسلم ، حلفاء فينا ، فقال رسول الله ﷺ : ما منع أحد أولئك حين تخلف أن يحمل على بعير من إبله امرءًا نشيطًا فى سبيل الله ؟ إن أعز أهلى علىَّ أن يتخلف عنى المهاجرون من قريش والأنصار وغفار وأسلم ·

* * *

أَمْرُ مسْجد الضِّرار عند القُفُولِ من غزوة تبوك

• دعوة أهله الرسول للصلاة فيه :

قال ابن إسحاق : ثم أقبل رسول الله ﷺ حتى نزل بذى أوان بلد ، بينه وبين المدينة ساعة من نهار ، وكان أصحاب مسجد الضِّرار قد كانوا أتوه وهو يتجهز إلى تبوك · فقالوا : يا رسول الله ، إنا قد بنينا مسجدًا لذى العلة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتية ، وإنا نحب أن تأتينا · فتصلى لنا فيه ، فقال : إنى على جناح سفر ، وحال شغل أو كما قال ﷺ : ولو قد قدمنا إن شاء الله تعالى لأتيناكم ، فصلينا لكم فيه ·

• أمر الرسول ﷺ بهدمه :

فلما نزل بذى أوان ، أتاه خبر المسـجد ، فدعا رسول الله ﷺ مالك بن الدُّخْشُم ، أخا بنى سالم بن عوف ، ومَعْن بن عَدِى ، أو أخاه عاصم بن عدى ، أخا بنى العجلان · فقال : انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله ، فاهدماه وحرقاه فخرجا سريعين حتى أتيا بنى سالم بن عوف ، وهم رهط مالك بن الدخشم ، فقال مالك لمعن : أنظرنى حتى أخرج إليك بنار من أهلى · فدخل إلى أهله ، فأخذ سعفاً

---

(١) الثطاط : مفرد ثط ، صغير نبات شعر اللحية ·

(٢) شبكة شدخ : موضع ببلاد غفار ·

من النخل ، فاشعل فيه ناراً ، ثم خرجا يشتدان حتى دخلاه وفيه أهله ، فحرقاه وهدماه ، وتفرقوا عنه ، ونزل فيهم من القرآن ما نزل : ﴿ **والذين اتخذوا مسجداً ضِراراً وكفراً وتفريقًا بين المؤمنين** ﴾ [1] . إلى آخر القصة .

وكان الذين بنوه اثنى عشر رجلا : خذام بن خالد ، من بنى عبيد بن زيد . أحد بنى عمرو بن عوف ،ومن داره أخرج مسجد الشقاق ، وثعلبة بن حاطب من بنى أمية بن زيد ، ومعتّب بن قشير ، من بنى ضبيعة بن زيد ، وأبو حبيبة بن الأزهر ، من بنى ضبيعة بن زيد ، وعباد بن حنيف أخو سهل بن حنيف ، من بنى عمرو بن عوف ، وجارية بن عامر ، وابناه مجمع بن جارية . وزيد بن جارية ، ونبتل بن الحارث ، من بنى ضبيعة ، وبحزج ، من بنى ضبيعة ، وبجاد بن عثمان من بنى ضبيعة ، ووديعة بن ثابت ،وهو من بنى أمية بن زيد رهط أبى لبابة بن عبد المنذر .

مساجد الرسول : وكانت مساجد رسول الله ﷺ فيما بين المدينة إلى تبوك . معلومة مسماة : مسجد بتبوك ، ومسجد بثنية مدران ، ومسجد بذات الزِّراب ، ومسجد بالأخضر ، ومسجد بذات الخطمى ، ومسجد بألاء ، ومسجد بطرف البتراء ، من ذنب كواكب ، ومسجد بالشق ، شق تارا ، ومسجد بذى الجيفة ، ومسجد بصدر حوضى ، ومسجد بالحجر ، ومسجد بالصعيد ، ومسجد بالوادى ، اليوم ، وادى القرى ، ومسجد بالرُّقعة من الشُّقة ، شقة بنى عذرة ، ومسجد بذى المروة ، ومسجد بالفيفاء ، ومسجد بذى خشب .

* * *

أمْرُ الثلاثة الذين خُلِّفوا وأَمْر المعذَّرين فى غزوة تبوك

وقدم رسول الله ﷺ المدينة ، وقد كان تخلف عنه رهط من المنافقين ، وتخلف أولئك الرهط الثلاثة من المسلمين من غير شك ولا نفاق : كعب بن مالك ، ومرارة بن الربيع ، وهلال بن أمية ، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه : لا تكلمن أحدًا من هؤلاء الثلاثة ، وأتاه من تخلف عنه من المنافقين فجعلوا يحلفون له ويعتذرون ، فصفح عنهم رسول الله ﷺ ، ولم يعذرهم الله ورسوله ، واعتزل المسلمون كلام أولئك النفر الثلاثة .

---

(١) سورة التوبة : الآية ١٠٧ .

• حديث كعب عن تخلفه :

قال ابن إسحاق : فذكر الزهرى محمد بن مسلم بن شهاب ، عن عبد الرحمن ابن عبد الله بن كعب بن مالك أن أباه عبد الله ، وكان قائد أبيه حين أصيب بصره قال : سمعت أبى كعب بن مالك يحدث حديثه حين تخلف عن رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك ، وحديث صاحبيه ، قال : ما تخلفت عن رسول الله ﷺ فى غزوة غزاها قط ، غير أنى كنت قد تخلفت عنه فى غزوة بدر ، وكانت غزوة لم يعاتب الله ولا رسوله أحدًا تخلف عنها ، وذلك أن رســـول الله ﷺ إنما خرج يريد عير قريش ، حتى جمع الله بينه وبين عدوه على غير ميعاد ، ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ العقبة ، حين تواثقنا على الإسلام ، وما أحب أن لى بها مشهد بدر وإن كانت غزوة بدر هى أذكر عند الناس منها . قال : كان من خبرى حين تخلّفت عن رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك أنى لم أكن قط أقوى ولا أيســر منى حين تخلفت عنه فى تلك الغزوة ، ووالله ما اجتمعت لى راحلتان قط حتى اجتمعتا فى تلك الغزوة ، وكان رسول الله ﷺ قلما يريد غزوة يغزوها إلا ورى بغيرها ، حتى كانت تلك الغزوة ، فغزاها رسول الله فى حر شديد ، واستقبل سفرًا بعيدًا ، واستقبل غزو عدو كثير ، فجلى للناس أمرهم ليتأهبوا لذلك أهبته وأخبرهم خبره بوجهه الذى يريد ، والمسلمون من تبع رسول الله ﷺ كثير . لا يجمعهم كتاب حافظ ، يعنى بذلك الديوان ، يقول لا يجمعهم ديوان مكتوب .

قال كعب : فقلّ رجل يريد أن يتغيب الا ظن أنه سيخفى له ذلك ، ما لم ينزل فيه وحى من الله وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار وأحبت الظلال ، فالناس إليها صعَر (١) فتجهز رسول الله ﷺ ، وتجهز المسلمون معه . وجعلت أغدو لأتجهز معهم فأرجع ولم أقض حاجة ، فأقول فى نفسى أنا قادر على ذلك إذا أردت ، فلم يزل ذلك يتمادى بى حتى شمر الناس بالجد ، فأصبح رسول الله ﷺ غاديًا ، والمسلمون معه ، ولم أقض من جهازى شيئا ، فقلت : أتجهز بعده بيوم أو يومين ، ثم ألحق بهم ، فغدوت بعد أن فصلوا لأتجهز فرجعت ولم أقض شيئا ثم غدوت فرجعت ولم أقض شيئا ، فلم يزل ذلك يتمادى بى حتى

---

(١) صعر : مفرده أصعر : وهو المائل ، ومنها قول الله تعالى : ﴿ **ولا تصعر خدك للناس** ﴾ .

أسرعوا ، وتفرط [١] الغزو ، فهممت أن أرتحل فأدركهم وليتنى فعلت ، فلم أفعل ، وجعلت إذا خرجت فى الناس بعد خروج رسول الله ﷺ فطفت فيهم يحزننى أنى لا أرى إلا رجلاً مغموصًا [٢] عليه فى النفاق ، أو رجلاً ممن عذر الله من الضعفاء ولم يذكرنى رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك ، فقال وهو جالس فى القوم بتبوك : ما فعل كعب بن مالك ؟ فقال رجل من بنى سلمة : يا رسول الله ، حبسه برداه ، والنظر فى عطفيه ، فقال له معاذ بن جبل : بئس ما قلت ، والله يا رسول الله ما علمنا منه إلا خيرًا ، فسكت رسول الله ﷺ .

فلما بلغنى أن رسول الله ﷺ قد توجه قافلا من تبوك ، حضرنى بثى [٣] فجعلت أتذكر الكذب وأقول : بماذا أخرج من سخطة رسول الله ﷺ غدًا وأستعين على ذلك كل ذى رأى من أهلى ، فلما قيل إن رسول الله ﷺ قد أظل [٤] قادما زاح [٥] عنى الباطل ، وعرفت أنى لا أنجو منه إلا بالصدق ، فأجمعت أن أصدقه ، وصبح رسول الله ﷺ المدينة ، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد ، فركع فيه ركعتين ، ثم جلس للناس ،فلما فعل ذلك ، جاءه المخلَّفون ، فجعلوا يحلفون له ويعتذرون ، وكانوا بضعة وثمانين رجلا ، فيقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم وأيمانهم ، ويستغفر لهم ويكل سرائرهم إلى الله تعالى ، حتى جئت فسلمت عليه ، فتبسم تبسم المغضب ، ثم قال لى : تعاله فجئت أمشى ، حتى جلست بين يديه ، فقال لى : ما خلفك ؟ ألم تكن ابتعت ظهرك ؟ قال : قلت : إنى يا رسول الله ، والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا ، لرأيت أنى سأخرج من سخطه بعذر ، ولقد أعطيت جدلا ، لكن والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديثًا كذبا لترضين عنى وليوشكن الله أن يسخطك علىَّ ، لئن حدثتك حديثا صدقا تجد علىَّ فيه ، إنى لأرجو لله عقباى من الله فيه ، ولا والله ما كان لى عذر ، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنك . فقال رسول الله ﷺ : أما هذا فقد صدقت فيه فقم حتى يقضى الله فيك فقمت ، وثار معى رجال من بنى سلمة ، فاتبعونى فقالوا لى : والله ما علمناك كنت أذنبت ذنبا قبل هذا ، ولقد عجزت أن لا تكون اعتذرت إلى

---

(١) تفرط : فات . (٢) مغموصًا : مطعونًا .
(٣) بثى : حزنى . (٤) أظل : أشرف .
(٥) يقال : زاح وانزاح : إذا ذهب ، والمصدر ريوحا وزيحانا .

رسول الله ﷺ بما اعتذر به إليه المخلفون ، قد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله ﷺ لك ، فوالله ما زالوا بى حتى أردت أن أرجع إلى رسول الله ﷺ ، فأكذب نفسى ، ثم قلت لهم : هل لقى هذا أحد غيرى ؟ قالوا : نعم ، رجلان قالا مثل مقالتك ، وقيل لهما مثل ما قيل لك ، قلت : من هما ؟ قالوا : مرارة بن الربيع العمرى ، من بنى عمرو بن عوف ، وهلال بن أبى أمية الواقفى ، فذكروا لى رجلين صالحين ، فيهما أسوة فصمتُّ حين ذكروهما لى ونهى رسول الله ﷺ عن كلامنا أيها الثلاثة ، من بين من تخلف عنه ، فاجتنبنا الناس ، وتغيروا لنا حتى تنكرتْ لى نفسى والأرض ، فما هى بالأرض التى كنت أعرف ، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة ، فأما صاحباى فاستكانا ، وقعدا فى بيوتهما ، وأما أنا فكنت أشبَّ القوم وأجلَدَهم فكنت أخرج ، وأشهد الصلوات مع المسلمين ، وأطوف بالأسواق ، ولا يكلمنى أحد ، وآتى رسول الله ﷺ ، فأسلم عليه وهو فى مجلسه بعد الصلاة ، فأقول فى نفسى ، هل حرك شفتيه برد السلام علىَّ أم لا ؟ ثم أصلى قريبًا منه ، فأسارقه النظر ، فإذا أقبلت على صلاتى نظر إلىَّ ، وإذا التفت نحوه أعرض عنى حتى إذ طال ذلك علىَّ من جفوة المسلمين ، مشيت حتى تسورت جدار حائط أبى قتادة وهو ابن عمى ، وأحب الناس إلىَّ ، فسلمت عليه فوالله ما رد علىَّ السلام ، فقلت يا أبا قتادة ، أنشدك الله ، هل تعلم أنى أحب الله ورسوله ؟ فسكت فعدت فناشدته ، فسكت عنى ، فعدت فناشدته ، فسكت عنى ، فعدت فناشدته فقال : الله ورسوله أعلم ، ففاضت عيناى ، ووثبت فتسورت الحائط . ثم غدوت إلى السوق فبينا أنا أمشى بالسوق وإذا نبْطى [1] يسأل عنى من نبِط الشام ، ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول : من يدل علَّى كعب بن مالك ؟ قال : فجعل الناس يشيرون له إلىَّ ، حتى جاءنى ، فدفع إلىَّ كتابًا من ملك غسان ، وكتب كتابا فى سرقة [2] من حرير ، فإذا فيه : أما بعد ، فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك ، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة . فالحق بنا نواسك . قال : قلت حين قرأتها : وهذا من البلاء أيضًا ، قد بلغ بى ما وقعت فيه أن أطمع فى رجل من أهل الشرك . قال : فعمدت بها إلى

---

(١) النبطى : مفرد من النبط ، وهم قوم من العجم كانوا يسكنون بين العراق والأردن .

(٢) السرقة : الشقة (القطعة) من الحرير .

تنور [١] ، فسجرته [٢] بها . فأقمنا على ذلك حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين إذا رسولُ رسولِ الله يأتينى ، فقال : إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك ، قال : قلت أطَلقها أم ماذا ؟ قال : لا ، بل اعتزلها ولا تقربها ، وأرسل إلى صاحبىَّ بمثل ذلك ، فقلت لامرأتى : الحقى بأهلك فكونى عندهم حتى يقضى الله فى هذا الأمر ما هو قاض . قال : وجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله ﷺ ، فقالت له : يا رسول الله ، إن هلال بن أمية شيخ كبير ضائع لا خادم له ، أفتكره أن أخدمه ؟ قال : لا ، ولكن لا يقربنـك ، قالت : والله يا رسول الله ، ما به من حركة إلىَّ ، والله ما زال يبكى منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا، ولقد تخوَّفت على بصره . قال : فقال لى بعض أهلى : لو استأذنت رسول الله لامرأتك ، فقد أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه ، قال : فقلت : والله لا أستأذنه فيها ما أدرى ما يقول رسول الله ﷺ لى فى ذلك إذا استأذنته فيها ، وأنا رجل شاب . قال فلبثنا بعد ذلك عشر ليال ، فكمل لنا خمسون ليلة ، من حين نهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا ، ثم صليت الصبح ، صبح خمسين ليلة ، على ظهر بيت من بيوتنا ، على الحال التى ذكر الله منا ، قد ضاقت علينا الأرض بما رحبت ، وضاقت علىَّ نفسى ، وقد كنت ابتنيت خيمة فى ظهر سلع [٣] ، فكنت أكون فيها إذ سمعت صوت صارخ أوفى على ظهر سلع يقول بأعلى صوته : يا كعب ابن مالك ، أبشر ، قال فخررت ساجداً ، وعرفت أن قد جاء الفرج .

قال : وآذن رسول الله ﷺ الناس بتوبة الله علينا حين صلى الفجر ، فذهب الناس يبشروننا ، وذهب نحو صاحبىَّ مبشِّرون ، وركض رجل إلىَّ فرسًا ، وسعى ساع من أسلم ، حتى أوفى على الجبل ، فكان الصوت أسرع من الفرس ، فلما جاءنى الذى سمعت صوته يبشرنى ، نزعت ثوبىَّ ، فكسوتهما إياه بشارة ، والله ما أملك يومئذ غيرهما ، واستعرت ثوبين فلبستهما ، ثم انطلقت أتيمم رسول الله ﷺ وتلقانى الناس يبشرونى بالتوبة ، يقولون : ليهنك توبة الله عليك ، حتى

---

(١) التنور : الفرن .

(٢) سجرته : أحرقته بلهب النار .

(٣) سلع : جبل بالمدينة .

دخلت المسجد ، ورسول الله ﷺ جالس حوله الناس ، فقام إلىَّ طلحة بن عبيد الله ، فحيانى وهنأنى ، ووالله ما قام إلىَّ رجل من المهاجرين غيره . قال : فكان كعب بن مالك لا ينساها لطلحة .

قال كَعْب : فلما سلمت على رسول الله ﷺ قال لى ، ووجهه يبرق من السرور أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك ، قال : قلت : أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله ؟ قال : بل من عند الله . قال : وكان رسول الله ﷺ إذا استبشر كأن وجهه قطعة قمر . قال : وكنا نعرف ذلك منه . قال : فلما جلست بين يديه قلت : يا رسول الله ، إن من توبتى إلى الله عز وجل أن أنخلع من مالى ، صدقة إلى الله ورسوله ، قال رسول الله ﷺ : أمسك عليك بعض مالك ، فهو خير لك . قال قلت : إنى ممسك سهمى الذى بخيبر ، وقلت : يا رسول الله ، إن الله قد نجانى بالصدق ، وإن من توبتى إلى الله أن لا أحدِّث إلا صدقا ما حييت ، والله ما أعلم أحدًا من الناس أبلاه الله فى صدق الحديث منذ ذكرتُ ذلك لرسول الله ﷺ ذلك أفضل مما أبلانى الله ، والله ما تعْمدت من كذبة منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومى هذا ، وإنى لارجو أن يحفظنى الله فيما بقى (١) .

وأنزل الله تعالى : ﴿ **لَقَد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم إنه بهم رءوف رحيم * وعلى الثلاثة الذين خلِّفوا** ﴾ ... إلى قوله : ﴿ **وكونوا مع الصادقين** ﴾ (٢) .

قال كعب : فوالله ما أنعم الله علىَّ نعمة قط بعد أن هدانى للإسلام كانت أعظم فى نفسى من صدق رسول الله ﷺ يومئذ ، أن لا أكون كذبته ، فأهلك كما هلك الذين كذبوه ، فإن الله تبارك وتعالى قال فى الذين كذبوه حين أنزل الوحى شر ما قال لأحد ، قال : ﴿ **سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم فأعرضوا**

---

(١) أى فيما بقى من عمره .

(٢) سورة التوبة : الآيات ١١٧ - ١١٩ .

عنهم إنهم رجس ومأواهم جهنم جزاءً بما كانوا يكسبون * يحلفون لكم لترضوا عنهم فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين ﴾ (١) .

قال : وكنا خلفنا أيها الثلاثة عن أمر هؤلاء الذين قبل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا له فعذرهم ، واستغفر لهم ، وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا ، حتى قضى الله فيه ما قضى ، فبذلك قال الله : **﴿ وعلى الثلاثة الذين خلفوا ﴾** (٢) .

وليس الذى ذكر الله من تخليفنا لتخلفنا عن الغزوة ولكن لتخليفه إيانا وأرجائه أمرنا عمن حلف له ، واعتذر إليه ، فقبل منه (٣) .

* * *

(١) سورة التوبة : الآيات ٩٥ - ٩٦ .

(٢) سورة التوبة : الآية ١١٨ .

(٣) وإنما اشتد غضبه على من تخلف عنه ، ونزل فيهم من الوعيد ما نزل حتى تاب الله على الثلاثة منهم ، وإن كان الجهاد من فروض الكفاية لكنه فى حق الأنصار خاصة كان فرض عين - أى واجب حتما لا يسقط إذا قام به البعض - وعليه بايع الأنصار النبى ﷺ ، ألا تراهم يقولون يوم الخندق ، وهم يرتجزون :

نحن الذين بايعوا محمداً   على الجهاد ما بقينا أبداً .

ومن تخلف منهم يوم بدر إنما تخلف ، لأنهم خرجوا لأخذ عير ولم يظنون أن سيكون قتال ، فلذلك؛ كان التخلف عن رسول الله ﷺ فى هذه الغزوة كبيرة لأنها كالنكث لبيعتهم .

أَمْرُ وفْد ثَقيف وإسلامها
فى شهر رمضان سنة تسع

قال ابن إسحاق : وقدم رسول الله ﷺ المدينة من تبوك فى رمضان ، وقدم عليه فى ذلك الشهر وفد ثقيف .

وكان من حديثهم أن رسول الله ﷺ لما انصرف عنهم ، اتبع أثره عروة بن مسعود الثقفى ، حتى أدركه قبل أن يصل إلى المدينة ، فأسلم وسأله أن يرجع إلى قومه بالإسلام ، فقال له رسول الله ﷺ - كما يتحدث قومه - إنهم قاتلوك ، وعرف رسول الله ﷺ أن فيهم نخوة الامتناع الذى كان منهم ، فقال عروة : يا رسول الله أنا أحب إليهم من أبكارهم (١) .

قال ابن إسحاق : وكان فيهم كذلك محببًا مطاعا : فخرج يدعو قومه إلى الإسلام رجاء أن لا يخالفوه ، لمنزلته فيهم ، فلما أشرف لهم على علية له ، وقد دعاهم إلى الإسلام ، وأظهر لهم دينه ، رموه بالنبل من كل وجه ، فأصابه سهم فقتله . فتزعم بنو مالك أنه قتله رجل منهم يقال له أوس بن عوف ، أخو بنى سالم ابن مالك . وتزعم الأحلاف أنه قتله رجل منهم ، من بنى عتاب بن مالك ، يقال له وهب بن جابر ، فقيل لعروة : ما ترى فى دمك ؟ قال : كرامة أكرمنى الله بها ، وشهادة ساقها الله إلىَّ ، فليس فى إلا ما فى الشهداء الذين قتلوا مع رسول الله ﷺ قبل أن يرحل عنكم ، فادفنونى معهم ، فزعموا أن رسـول الله ﷺ قال فيه : إن مثله فى قومه لكمثل صاحب ياسين فى قومه (٢) .

ثم أقامت ثقيف بعد قتل عروة أشهرًا ، ثم إنهم ائتمروا بينهم ، ورأوا أنه لا طاقة لهم بحرب من حولهم من العرب وقد بايعوا وأسلموا .

---

(١) قال ابن هشام : ويقال : من أبصارهم .

(٢) يحتمل قوله ﷺ ، كمثل صاحب ياسين أن يريد به المذكور فى سورة ياسين ، الذى قال لقومه : ﴿ اتبعوا المرسلين ﴾ فقتله قومه ، واسمه حبيب بن مرمى ، ويحتمل أن يريد صاحب إلياس ، وهو اليسع ، فإن إلياس يقال فى اسمه : ياسين أيضا ، وقال الطبرى : وهو إلياس بن ياسين ، وفيه قال تبارك وتعالى : ﴿ سلام على إل ياسين ﴾ .

حدثنى يعقوب بن عتبة بن المغيرة بن الأخنس : أن عمرو بن أمية ، أخا بنى علاج كان مهاجراً لعبد ياليل بن عمرو ، الذى بينهما شىء ، وكان عمرو بن أمية من أدهى العرب ، فمشى إلى عبد ياليل بن عمرو حتى دخل داره ·

ثم أرسل إليه إن عمرو بن أمية يقول لك : أخرج إلىّ قال : فقال عبد ياليل للرسول ويلك ! أعمرو أرسلك إلىّ ؟ قال : نعم ، وها هو ذا واقفا فى دارك ، فقال : إن هذا لشىء ما كنت أظنه لعمرو كان أمنع فى نفسه من ذلك ، فخرج إليه ، فلما رآه رحب به فقال له عمرو : إنه قد نزل بنا أمر ليست معه هجرة إنه قد كان من أمر هذا الرجل ما قد رأيت ، فقد أسلمت العرب كلها وليست لكم بحربهم طاقة ، فانظروا فى أمركم فعند ذلك ائتمرت ثقيف بينها ، وقال بعضهم لبعض : أفلا ترون أنه لا يأمن لكم سرب [1] ، ولا يخرج منكم أحد إلا اقتطع فأتمروا بينهم وأجمعوا أن يرسلوا إلى رسول الله ﷺ رجلاً كما أرسلوا عروة ، فكلموا عبد ياليل بن عمرو ابن عمير ، وكان سن [2] عروة بن مسعود ، وعرضوا ذلك عليه ، فأبى أن يفعل ، وخشى أن يصنع به إذا رجع كما صنع بعروة · فقال : لست فاعلاً حتى ترسلوا معى رجالاً ، فأجمعوا أن يبعثوا معه رجلين من الأحلاف ، وثلاثة من بنى مالك فيكونوا ستة ، فبعثوا مع عبد يا ليل · الحكم بن عمرو بن وهب بن معتب ، وشرحبيل بن غيلان بن سلمة بن معتب ، ومن بنى مالك عثمان بن أبى العاص بن بشر بن عبد دهمان ، أخا بنى يسار ، وأوس بنى عوف ، أخا بنى سالم ونمير بن خرشة بن ربيعة ، أخا بنى الحارث فخرج بهم عبد ياليل ، وهو ناب القوم [3] وصاحب أمرهم ، ولم يخرج بهم إلا خشية من مثل ما صنع بعروة بن مسعود ، لكى يشغل كل رجل منهم إذا رجعوا إلى الطائف رهطه ·

فلما دنوا من المدينة ، نزلوا قناة · فألفوا بها المغيرة بن شعبة ، يرعى فى نوبته

(١) السرب : القطيع من الحيوان أو الفريق من الإنسان أو جماعة النخل وهو أيضًا الطريق · والقلب والصدر ·

(٢) أى فى سنه أو مثله فى السن ·

(٣) ناب القوم : سيدهم والمدافع عنهم ·

ركاب أصحاب رسول الله ﷺ وكانت رعيتها عند الثقفيين ، وضبر [1] يشتد .
ليبشر رسول الله ﷺ ، بقدومهم عليه فلقيه أبو بكر الصديق قبل أن يدخل على رسول الله ﷺ فأخبره عن ركب ثقيف أن قد قدموا يريدون البيعة والإسلام بأن يشرط لهم رسول الله ﷺ شروطا ، ويكتتبوا من رسول الله ﷺ كتابًا فى قومهم وبلادهم وأموالهم فقال أبو بكر للمغيرة : أقسمت عليك بالله لا تسبقنى إلى رسول الله ﷺ ، حتى أكون أنا أحدثه ، ففعل المغيرة ، فدخل أبو بكر على رسول الله ﷺ . فأخبره بقدومهم عليه ، ثم خرج المغيرة إلى أصحابه ، فروح الظهر معهم ، وعلمهم كيف يحيون رسول الله ﷺ ، فلم يفعلوا إلا بتحية الجاهلية ، ولما قدموا على رسول الله ﷺ ضرب عليهم قبة فى ناحية مسجده ، كما يزعمون ، فكان خالد بن سعيد بن العاص ، هو الذى يمشى بينهم وبين رسول الله ﷺ ، حتى اكتتبوا كتابهم ، وكان خالد هو الذى كتب كتابهم بيده ، وكانوا لا يطعمون طعاما يأتيهم من عند رسول الله ﷺ حتى يأكل منه خالد ، حتى أسلموا وفرغوا من كتابهم ، وقد كان فيما سألوا رسول الله ﷺ أن يدع لهم الطاغية ، وهى اللات ، لا يهدمها ثلاث سنين ، فأبى رسول الله ﷺ ذلك عليهم فما برحوا يسألونه سنة سنة ، ويأبى عليهم حتى سألوا شهراً واحدًا بعد مقدمهم ، فأبى عليهم أن يدعها شيئا مسمى ، وإنما يريدون بذلك فيما يظهرون أن يتسلموا بتركها من سفهائهم ونسائهم وذراريهم ويكرهون أن يروعوا قومهم بهدمها حتى يدخلهم الإسلام ، فأبى رسول الله ﷺ إلا أن يبعث أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة فيهدماها ، وقد كانوا سألوه مع ترك الطاغية أن يعفيهم من الصلاة ، وأن لا يكسروا أوثانهم بأيديهم ، فقال رسول الله ﷺ : أما كسر أوثانكم بأيديكم فسنعفيكم منه ، وأما الصلاة ، فإنه لا خير فى دين لا صلاة فيه ، فقالوا : يا محمد ، فسنؤتيكها ، وإن كانت دناءة .

فلما أسلموا وكتب لهم رسول الله ﷺ كتابهم ، أمّر عليهم عثمان بن أبى العاص ، وكان من أحدثهم سنا ، وذلك أنه كان أحرصهم على التفقه فى الإسلام ، وتعلم القرآن . فقال أبو بكر لرسول الله ﷺ يا رسول الله ، إنى قد رأيت هذا الغلام منهم من أحرصهم على التفقه فى الإسلام ، وتعلم القرآن.

---

(١) ضبر : وثب .

• قصة بلال مع ثقيف :

قال ابن إسحاق : وحدثنى عيسى بن عبد الله بن عطية بن سفيان بن ربيعة الثقفى ، عن بعض وفدهم . قال : كان بلال يأتينا - حين أسلمنا وصمنا مع رسول الله ﷺ ما بقى من رمضان - بفطرنا وسحورنا من عند رسول الله ﷺ ، فيأتينا بالسحور ، وإنا لنقول إنا لنرى الفجر قد طلع ، فيقول : قد تركت رسول الله ﷺ ، يتسحر لتأخير السحور ، ويأتينا بفطرنا [1] ، وإنا لنقول : ما نرى الشمس كلها ذهبت بعد ، فيقول : ما جئتكم حتى أكل رسول الله ﷺ ، ثم يضع يده فى الجفنة ، فيلتقم منها .

قال ابن إسحاق : وحدثنى سعيد بن أبى هند، عن مُطرف بن عبد الله الشِّخِّير ، عن عثمان بن أبى العاص ، قال : كان من آخر ما عهد إلىَّ رسول الله ﷺ حين بعثنى على ثقيف أن قال : يا عثمان ، تجاوز فى الصلاة ، واقدر الناس بأضعفهم ، فإن فيهم الكبير ، والصغير ، والضعيف وذا الحاجة [2] .

• هَدْمُ اللاَّت :

قال ابن إسحاق : فلما فرغوا من أمرهم ، وتوجهوا إلى بلادهم راجعين بعث رسول الله ﷺ معهم أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة ، فى هدم الطاغية [3] ، فخرجنا مع القوم ، حتى إذا قدموا الطائف أراد المغيرة بن شعبة أن يقدم أبا سفيان ، فأبى ذلك أبو سفيان عليه ، وقال : ادخل أنت على قومك ، وأقام أبو سفيان بما له

---

(١) قال ابن هشام : بفطورنا وسحورنا .

(٢) وهذا من رحمة الرسول ﷺ أن يوصى فى آخر حياته بأمر مهم حتى لا تحدث فتنة بعده ، وهو عدم ، الإطالة فى الصلاة حتى لا يثقل على المسلمين فإن فيهم الضعيف والكبير والمريض وذلك للإمام فى صلاة الجماعة ، ولكن بشرط عدم الإخلال بشروط الصلاة ، مع حسن الترتيل وإعطاء كل ركن فى الصلاة حقه .

(٣) وكان صنمًا لثقيف ، وهى صخرة مربعة ، وكانت سدنتها من ثقيف ، وكانوا قد بنوا عليها بناء ، فكانت قريش ، وجميع العرب تعظمها ، وكانت فى موضع « منارة » مسجد الطائف اليسرى ، انظر تفسير القرطبى ٩ / ٦٥٠٠ ط . دار الغد العربى .

بذى الهدم ، فلما دخل المغيرة بن شعبة عَلَاها [١] يضربها بالمعول [٢] ، وقام قومه دونه بنو معتب ، خشية أن يُرمَى أو يصاب كما أصيب عروة ، وخرج نساء ثقيف حسرًا [٣] يبكين عليها ويقلن :

لتبكين دفاع أسلمها الرضاع [٤] لم يُحسـنوا المصَاع [٥]

قال ابن إسحاق : يقول أبو سفيان والمغيرة يضربها بالفأس ، واهًا لك : أهًا لك ، فلما هدمها المغيرة ، وأخذ مالها وحُليَّها [٦] أرسل إلى أبى سفيان وحليها مجموع ، ومالها من الذهب والجزع .

• إسلام أبى مُليح وقارب :

وقد كان أبو مليح بن عروة وقارب بن الأسود قدما على رسول الله ﷺ قبل وفد ثقيف ، حين قُتل عروة يريدان فراق ثقيف [٧] ، وأن لا يجامعاهم على شيء أبدًا فأسلما فقال لهما رسول الله ﷺ : توليا من شئتما ، فقالا : نتولى الله ورسوله فقال رسول الله ﷺ : وخالكما أبا سفيان بن حرب ، فقالا : وخالنا أبا سفيان بن حرب .

فلما أسلم أهل الطائف ووجه رسول الله ﷺ أبا سفيان والمغيرة إلى هدم الطاغية [٨] سأل رسول الله ﷺ أبو مليح بن عروة أن يقضى عن أبيه عروة دينًا كان

---

(١) علاها : صعد فوقها .
(٢) المعول : الفأس العظيمة .
(٣) حسرًا : أى عرايا الرءوس .
(٤) الرضاع : اللئام .
(٥) المصاع : القتال بالسيوف .
(٦) أى ما فيها من ذهب وفضة .
(٧) أى يريدان أن يدخلا فى الإسلام ويفارقا قومهما المشركين .
(٨) أى الصنم الذى كانت تعبده الطائف وهى اللات وكان صنم ثقيف بالطائف ، وقال عنه الكلبى : كان رجلاً من ثقيف يقال له صِرمة بن غنم . وقال ابن عباس ، وابن الزبير ومجاهد وحميد وأبو صالح : كان رجلاً يلت السويق للحاج - ذكره البخارى عن ابن عباس - فلما مات عكفوا على قبره فعبدوه . وقال ابن عباس : كان يبيـع السويق - والسمن عند صخرة ويصبه عليها ، فلما مات ذلك الرجل عبدت ثقيف تلك الصخرة إعظامًا لصاحب السويق ، وقال مجاهد : كان رجلاً فى رأس جبل له غنيمة يسلى منها السمن ويأخذ منـها =

عليه من مال الطاغية ، فقال له رسـول الله ﷺ : نعم ، فقال له قارب بن الأسود ، وعن الأسود يا رسول الله فاقضه ، وعروة والأسود أخوان لأب وأم [(١)] ، فقال رسول الله ﷺ : إن الأسود مات مشركًا فقال قارب لرسـول الله ﷺ يا رسول الله ،لكن تصل مسلمًا ذا قرابة ، يعنى نفسه إنما الدين على ، وإنما أنا الذى أطلب به ، فأمر رسول الله ﷺ أبا سفيان أن يقضى دين عروة والأسود من مال الطاغية ، فلما جمع المغيرة مالها قال لأبى سفيان : إن رسول الله ﷺ قد أمرك أن تقضى عن عروة والأسود دينهما ، فقضى عنهما .

كتَابهُ عليه السلام لثقيف : وكان كتاب رسول الله ﷺ الذى كتب لهم :

بسم الله الرحمن الرحيم : من محمد النبى ، رسول الله ، إلى المؤمنين : إن عضاه [(٢)] وج وصيده لا يعضد [(٣)] ، من وجد يفعل شيئا من ذلك ، فإنه يُجلد وتنزع ثيابه ، فإن تعدى ذلك فإنه يؤخذ فيبلغ به إلى النبى محمد ، وإن هذا أمر النبى محمد رسول الله .

وكتب خالد بن سعيد : بأمر الرسول محمد بن عبد الله ، فلا يتعده أحد ، فيظلم نفسه فيما أمر به محمد رسول الله ﷺ .

* * *

= الأقط - لبن محمَّض يجمد ويطبخ به - ويجمع رسلها ثم يتخذ منها حيسًا فيطعم الحاج ، وكان ببطن نخلة فلما مات عبدوه وهو اللات .

انظر تفسير القرطبى ٩ / ٦٥٠١ ط . دار الغد العربى ، المعـجم الوجيز مادة الأقط ص ٢١ .

(١) أى إنهما أخوان شقيقان .

(٢) العضاه : شجر له شوك .

(٣) لا يعضد : لا يقطع أى أنه حرام على غير أهله كتحريم مكة والمدينة ، وقيل وج . هى الطائف ، وقيل إنها واد بها .

حَجُّ أبى بكْر بالناس سَنَةَ تسعٍ واختصاصُ النبى ﷺ على بن أَبى طالب رضوان الله عليه بتأدية أول براءة عنه

قال ابن إسحاق : ثم أقام رسول الله ﷺ بقية شهر رمضان وشوَّالا وذا القعدة ثم بعث أبا بكر أميرًا على الحج من سنة تسع ، ليقيم للمسلمين حجهم ، والناس من أهل الشرك على منازلهم من حجهم . فخرج أبو بكر رضي الله عنه ومن معه من المسلمين .

ونزلت براءة فى نقض ما بين رسول الله ﷺ وبين المشركين من العهد ، الذى كانوا عليه فيما بينه وبينهم : أن لا يُصَدَّ عن البيت أحد جاءه ، ولا يخاف أحد فى الشهر الحرام ، وكان ذلك عهدا عاما بينه وبين الناس من أهل الشرك ، وكانت بين ذلك عهود بين رسول الله ﷺ وبين قبائل العرب خصائص ، إلى آجال مسماة ، فنزلت فيه وفيمن تخلف من المنافقين عنه فى تبوك ، وفى قول من قال منهم ، فكشف الله تعالى فيها سرائر أقوام كانوا يستخفون بغير ما يظهرون منهم من سمى لنا ومنهم من لم يُسَمَّ لنا ، فقال عز وجل : ﴿ **براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين** ﴾ [1] أى لأهل العهد العام من أهل الشرك : ﴿ **فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر واعلموا أنكم غير معجزى الله وأن الله مخزى الكافرين * وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله برئ من المشركين ورسوله** ﴾ أى بعد هذه الحجة : ﴿ **فإن تبتم فهو خير لكم وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزى الله وبشر الذين كفروا بعذاب أليم إلا الذين عاهدتم من المشركين** ﴾ أى العهد الخاص إلى الأجل المسمى : ﴿ **ثم لم ينقصوكم شيئًا ولم يظاهروا عليكم أحدًا فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين * فإذا انسلخ الأشهر الحرم** ﴾ : يعنى الأربعة التى ضرب لهم أجلا ، : ﴿ **فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم**

(١) الآيات من سورة التوبة : ١ -٥ .

واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم * وإن أحد من المشركين ﴾ : أى من هؤلاء الذين أمرتك بقتلهم : ﴿ **استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون** ﴾ (١) .

ثم قال تعالى : ﴿ **كيف يكون للمشركين** ﴾ الذين كانوا هم وأنتم على العهد العام أن لا يخيفوكم ولا تخيفوهم في الحرمة ، ولا فى الشهر الحرام ﴿ **عهد عند الله وعند رسوله إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام** ﴾ وهى قبائل من بنى بكر الذين كانوا دخلوا فى عقد قريش وعهدهم يوم الحديبية إلى المدة التى كانت بين رسول الله ﷺ وبين قريش ، فلم يكن نقضها إلا هذا الحى من قريش ، وهم بنو الديل من بني بكر بن وائل الذين كانوا دخلوا فى عقد قريش وعهدهم ، فأمر بإتمام العهد لمن لم يكن نقض من بنى بكر إلى مدته ﴿ **فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين** ﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿ **كيف وإن يظهروا عليكم** ﴾ أى المشركين الذين لا عهد لهم إلى مدة من أهل الشرك العام : ﴿ **لا يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة** ﴾ .

والذمة : العهد . قال الأجدع بن مالك الهمدانى ، وهو أبو مسروق الأجدع الفقيه :

وكَان عَلينا ذِمة أنْ تَجاوزُوا ... مِنَ الأرضِ مَعْروفا إلينا ومُنكرا

وهذا البيت فى ثلاثة أبيات له ، وجمعها : ذِمم .

﴿ **يرضونكم بأفواههم وتأبى قُلوبهم وأكثرهم فاسقون * اشتروا بآيات الله ثمنًا قليلا فصدوا عن سبيله إنهم سَاءَ ما كانوا يعملــون لا يرقبون فى مؤمن إلا ولا ذمة وأولئك هم المعتدون** ﴾ أى قد اعتدوا عليكم ﴿ **فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكَاة فإخوانكم فى الدين ونفصِّلُ الآيات لقوم يعلمون** ﴾ (٢) .

اختصاص على بتأدية بَراءة : قال ابن إسحاق : وحدثنى حكيم بن حكيم بن عباد بن حُنيف عن أبى جعفر محمد بن على رضوان الله عليه ، أنه قال : لما نزلت براءة على رسول الله ﷺ ، وقد كان بعث أبا بكر الصدِّيق ليقيم للناس الحج ،

(١) سورة التوبة : ٥ ، ٦ وهذه عدالة ورحمة الإسلام حتى مع المشرك .

(٢) سورة التوبة : ٧ - ١٠ .

قيل له : يا رسول الله لو بعثت بها إلى أبى بكر ، فقال : لا يؤدى عنى إلا رجل من أهل بيتى ، ثم دعا على بن أبى طالب رضوان الله عليه ، فقال له : اخرج بهذه القصة من صدر براءة [1] . وأذّن فى الناس يوم النحر إذا اجتمعوا بمنى ، أنه لا يدخل الجنة كافر ، ولا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عُريان ، ومن كان له عند رسول الله ﷺ عهد فهو له إلى مدته ، فخرج على بن أبى طالب رضوان الله عليه على ناقة رسول الله ﷺ العضباء ، حتى أدرك أبا بكر بالطريق فلما رآه أبو بكر بالطريق قال : أأمير أم مأمور ؟ فقال : بل مأمور ، ثم مضيا . فأقام أبو بكر للناس الحج والعرب إذ ذاك فى تلك السنة على منازلهم من الحج ، التى كانوا عليها فى الجاهلية ، حتى إذا كان يوم النحر ، قام على بن أبى طالب ﷺ ، فأذن فى الناس بالذى أمره به رسول الله ﷺ ، فقال : أيها الناس ، إنه لا يدخل الجنة كافر ، ولا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان له عند رسول الله ﷺ عهد فهو له إلى مدته : وأجل الناس أربعة أشهر من يوم أذن فيهم ، ليرجع كل قوم إلى مأمنهم أو بلادهم ، ثم لا عهد لمشرك ولا ذمة إلا أحد كان له عند رسول الله ﷺ عهد إلى مدة ، فهو له إلى مدته . فلم يحج بعد ذلك العام مشرك ، ولم يطف بالبيت عريان .

ثم قدما على رسول الله ﷺ .

قال ابن إسحاق : فكان هذا من براءة فيمن كان من أهل الشرك من أهل العهد العام وأهل المدة إلى الأجل المسمى .

● الأمْرُ بِجِهَادِ المشركينَ :

قال ابن إسحاق : ثم أمر الله رسوله ﷺ بجهاد أهل الشرك ، ممن نقض من أهل العهد الخاص ، ومن كان من أهل العهد العام ، بعد الأربعة الأشهر التى ضرب لهم أجلا إلا أن يعدو فيها عاد منهم فيقتل بعدائه ، فقال تعالى : **﴿ ألا تقاتلون قومًا نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدءوكم أول مرة أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين * قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين * ويذهب غيظ قلوبهم ويتوب الله﴾** [2] : أى من بعد ذلك

---

(١) أى من أول سورة براءة وهى سورة التوبة .

(٢) سورة التوبة : ١٣ - ١٥ .

: ﴿ **على من يشاء والله عليم حكيم * أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجةً والله خبير بما تعملون** ﴾ [١] .

● **القرآن يرد على قريش ادعاءهم عمارة البيت :**

قال ابن إسحاق : ثم ذكر قول قريش : إنَّا أهل الحرم ، وسقاة الحاج ، وعُمَّار هذا البيت فلا أحد أفضل منا ، فقال : ﴿ **إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر** ﴾[٢] : أى أن عمارتكم ليست على ذلك ، وإنما يعمر مساجد الله أى من يعمرها بحقها : ﴿ **من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله** ﴾ : أى فأولئك عمَّارها : ﴿ **فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين** ﴾ وعسى من الله : حق .

ثم قال تعالى : ﴿ **أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد فى سبيل الله لا يستوون عند الله** ﴾ [٣] ثم القصة حتى انتهى إلى ذكر حنين وما كان فيه وتوليهم عن عدوهم وما أنزل الله تعالى من نصره بعد تخاذلهم ، ثم قال تعالى : ﴿ **إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا وإن خفتم عِيلة** ﴾[٤] وذلك أن الناس قالوا : لتنقطعن عنا الأسواق ، فتهلكن التجارة ، وليذهبن ما كنا نصيب فيها من المرافق ، فقال الله عز وجل : ﴿ **وإن خفتم عِيلة فسوف يغنيكم الله من فضله** ﴾ أى من وجه غير ذلك ﴿ **إن شاء إن الله عليم حكيم * قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرِّمون ما حرَّم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون** ﴾ [٥] .

أى ففى هذا عوض مما تخوفتم من قطع الأسواق ، فعوضهم الله بما قطع عنهم بأمر الشرك ، ما أعطاهم من أعناق أهل الكتاب ، من الجزية .

---

(١) الآيات السابقة من سورة التوبة : الآيات ١٥ - ١٦ .

(٢) سورة التوبة : ١٨ .

(٣) سورة التوبة : ١٩ .

(٤) سورة التوبة : ٢٨ .

(٥) سورة التوبة : الآيات ٢٨ - ٢٩ .

ما نزل فى أهل الكتابين : ثم ذكر أهل الكتابين بما فيهم من الشر والفرية عليه ، حتى انتهى إلى قوله تعالى : ﴿ **إن كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم** ﴾ [(١)] .

ما نزل فى النسىء : ثم ذكر النسىء ، وما كانت العرب أحدثت فيه . والنسىء ما كان يُحل مما حرم الله تعالى من الشهور ، ويحرم مما أحل الله منها : فقال : ﴿ **إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً فى كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهن أنفسكم** ﴾ [(٢)] : أى لا تجعلوا حرامها حلالا ، ولا حلالها حراما : أى كما فعل أهل الشرك ﴿ **إنما النسىء** ﴾ الذى كانوا يصنعون ﴿ **زيادة فى الكفر يُضَل به الذين كفروا يحلّونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله زُين لهم سوء أعمالهم والله لا يهدى القوم الكافرين** ﴾ .

ما نزل فى تَبُوك : ثم ذكر تبوك وما كان فيها من تثاقل المسلمين عنها ، وما أعظموا من غزوه الروم ، حين دعاهم رسول الله ﷺ إلى جهادهم ، نفاق من نافق من المنافقين ، حين دُعوا إلى ما دعوا إليه من الجهاد ، ثم ما نعى عليهم من إحداثهم فى الإسلام ، فقال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض** ﴾ . ثم القصة إلى قوله تعالى : ﴿ **يعذِّبكم عذابا أليما ويستبدل قوما غيركم** ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ **إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار** ﴾ .

ما نزل فى أهل النفاق : ثم قال تعالى لنبيه ﷺ ، يذكر أهل النفاق : ﴿ **لو كان عَرَضًا قريبا وسفراً قاصداً لاتبعوك ولكن بعدت عليهم الشُّقة وسيحلفون بالله لواستطعنا لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم والله يعلم إنهم لكاذبون** ﴾ : أى إنهم يستطيعون : ﴿ **عفا الله عنك لمَ أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين** ﴾ .. إلى قوله : ﴿ **لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سمّاعون لهم** ﴾ .

---

(١) سورة التوبة : الآية ٣٤ .

(٢) الآيات إلى نهاية الصفحة من سورة التوبة : ٣٦ : ٤٧ .

قال ابن إسحاق : وكان الذين استأذنوه من ذوى الشرف ، فيما بلغنى ، منهم عبد الله بن أُبى بن سلول ، والجد بن قيس ، وكانوا أشرافًا فى قومهم ، فثبَّطهم الله لعلمه أنهم إن يخرجوا معه ، فيفسدوا عليه جنده وكان فى جنده قوم أهل محبة لهم ، وطاعة فيما يدعونهم إليه ، لشرفهم فيهم . فقال تعالى : **﴿ وفيكم سمَّاعون لهم والله عليم بالظالمين * لقد ابتغوا الفتنة من قبل ﴾** : أى من قبل أن يستأذنوك : **﴿ وقلَّبوا لك الأمور ﴾** : أى ليخذلوا عنك أصحابك ويردوا عليك أمرك **﴿ حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون * ومنهم من يقول ائذن لى ولا تفتنى ألا فى الفتنة سقطوا ﴾** [1] ، وكان الذى قال ذلك فيما سمى لنا الجد بن القيس أخو بنى سلمة حين دعاه رسول الله ﷺ إلى جهاد الروم ثم كانت القصة إلى قوله تعالى : **﴿ لو يجدون ملجأً أو مغارات أو مدخلاً لولوا إليه وهم يجمحون * ومنهم من يلمزك فى الصدقات فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون﴾**[2] : أى إنما نيتهم ورضاهم وسخطهم لدنياهم .

• ما نزل فى أصحاب الصدقات :

ثم بين الصدقات لمن هى ، وسمى أهلها ، فقال : **﴿ إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم ﴾** [3] .

• ما نزل فيمن آذوا الرسول ﷺ :

ثم ذكر غشهم وأذاهم للنبى ﷺ ، فقال : **﴿ ومنهم الذين يؤذون النبى ويقولون هو أُذُنٌ قل أُذُن خير لكم يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ورحمة للذين آمنوا منكم والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم ﴾** [4] وكان الذى يقول تلك المقالة فيما بلغنى، نبتل بن الحارث أخو بنى عمرو بن عوف ، وفيه نزلت هذه الآية ، وذلك أنه كان يقول : إنما محمد أُذُن من حدثه شيئًا صدقه . يقول الله تعالى : **﴿ قل أُذن خير لكم ﴾** [5] : أى يسمع الخير ويصدق به .

---

(١) وما بعدها من سورة التوبة : الآيات ٤٧ – ٥٩ . (٢) سورة التوبة : ٥٧ – ٥٨ .
(٣) سورة التوبة : ٦٠ . (٤) سورة التوبة : ٦١ . (٥) سورة التوبة : ٦٢ .

السيرة النبوية